جي دي موباسان

مختارات قصصية

ترجمة

محمد حمودة

الكتاب: مختارات قصصية

الكاتب: جي دي موباسان

ترجمة: محمد حمودة

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هنري، وليم

مختارات قصصية / جي دي موباسان ، ترجمة: محمد حمودة ،

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

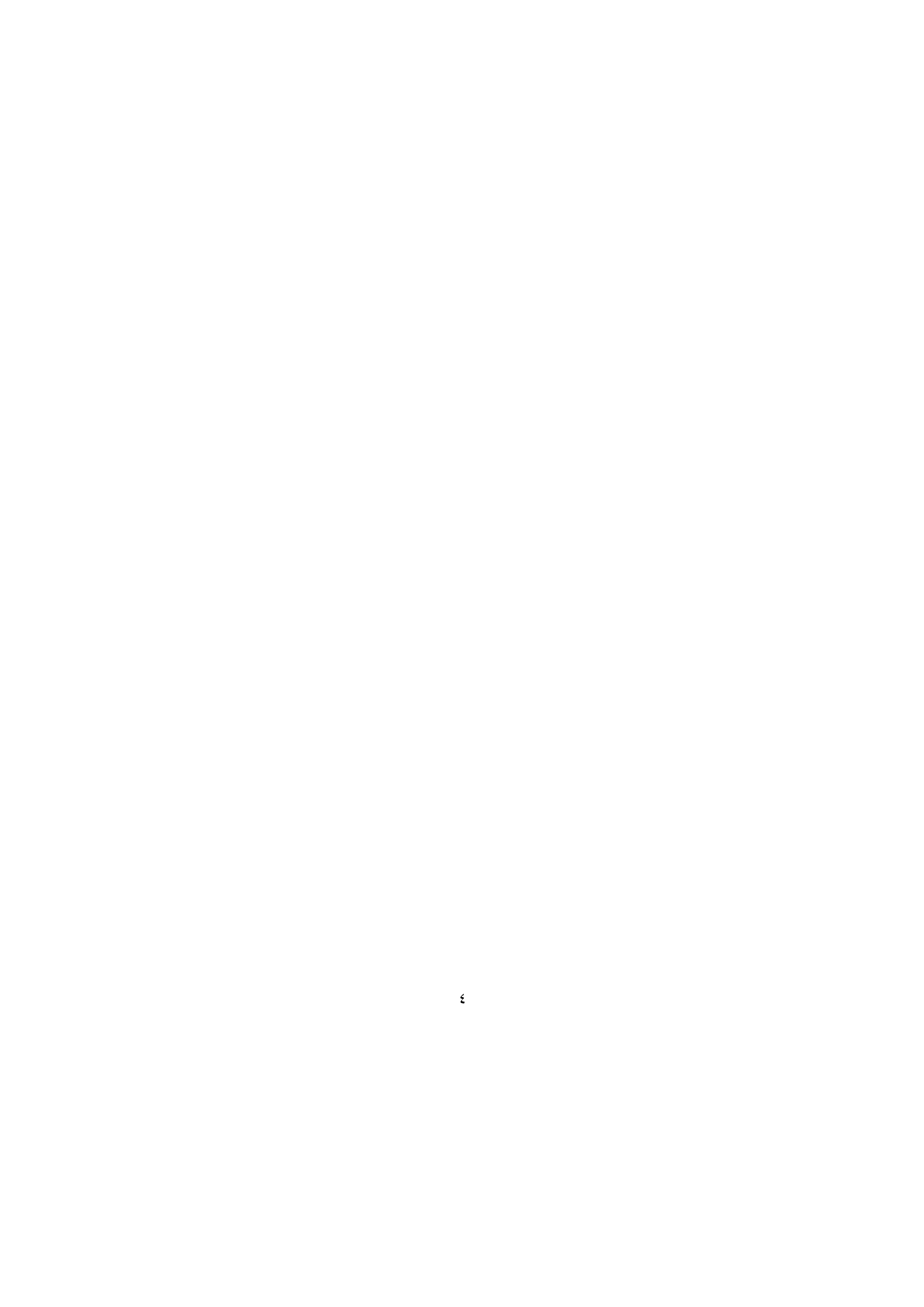
١٩٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٨ – ٠٦٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٢٠٦٧ / ٢٠٢٠

مختارات قصصية





ثلاث صفحات من مذكرات صياد

انتهيت لتوي من قراءة مأساة غرام في إحدى الجرائد. لقد قتلها ثم قتل نفسه، إذن فقد كان يحبها. ولا يهمني هو أو هي، أن حبهما وحده هو الذي يهمني. وهو لا يهمني قط لأنه يستثير عطفي أو دهشتي، أو لأنه يهيج عواطفي ويحملني على التفكير. ولكن لأنه يذكرني بإحدى ذكريات شبابي، ذكرى غريبة من ذكريات الصيد؛ طلع لي الحب فيها كما كانت تطلع الصلبان للنصارى الأول في كبد السماء.

ولقد ولدت بغرائز الرجل البدائي وحواسه جميعا، وخفف من حدتها تفكير الرجل المتمدين وانفعالاته. وإنني أحب الصيد حبًا جمًا. بيد أن منظر الطائر الجريح ودمه يغطي ريشه، ويفيض على يدي، ذلك المنظر يعصر قلبي حتى ليكاد أن يقفه عن الخفقان.

في تلك السنة، وحول أواخر الخريف أقبل البرد فجأة، ودعاني أحد أولاد عمي، وهو كارل دي روفيل لنصيد البط في مياه الغدران عند مطلع النهار.

وكان ابن عمي رجلًا مرحًا في الأربعين من عمره، أحمر الشعر، قوي البنية، كث اللحية. وهو من أعيان الريف، لطيف مرح الطبع، ونقب الروح الدعابة والتهكم، تلك الروح التي تحببك في العاديين من الناس.

وكان يسكن مبني أشبه بقصور الريف. يقوم في واد فسيح يجري فيه أحد الأنهار. وكانت ثمة غابات تكسو التلال عن يمين وعن يسار، وهي غابات قديمة من غابات النبلاء، فيها أندر أنواع القنائص من الطيور التي تعيش في هذا الجزء من فرنسا. كانت تصاد فيها النسور أحيانًا، وكانت الطيور العابرة، التي نادرًا ما تأتي إلى بلادنا المزدحمة بالسكان، لا تكف عن توقفها على هذه الأشجار الموغلة في القدم، كما لو كانت تعرف أو تتعرف على ركن صغير من غابات العصور السالفة، بقى في هذا المكان، لتتخذ منه ملجأ أثناء وقفتها الليلية القصيرة.

وفي الوادي أعشاب طويلة، ترويها قنوات، وتفصل بينها حواجز من النباتات الشوكية. وفيما وراء ذلك، يجري النهر الذي يشق طريقه حتى هذا المكان ثم ينتشر بعدئذ على هيئة مستنقع فسيح، وهذا المستنقع هو أروع ما شاهدت من مناطق الصيد على الإطلاق، وهو شغل ابن عمي الشاغل، وكان يعني به عناية البستاني ببستانه. وكانت تغطيه حشود من الغاب، تجعله ينبض بالحياة ويدوي لتلاطم الأمواج به، وقد شقت خلاله ممرات ضيقة تسير فيها المراكب المسطحة التي تقاد وتوجه بواسطة قصبة طويلة فتنساب في سكون على الماء الراكدة وتمس جذوع الغاب مسا خفيفًا، فتهرب الأسماك بسرعة خلال الأعشاب، ويغوص الدجاج البري في الماء، خافضًا فجأة رؤوسه السوداء المدببة.

وأنا أحب الماء حبًا جمًا. أحب البحر على الرغم من بالغ سعته

واضطراب حركته، واستحالة السيطرة عليه، وأهوى الأنهار الجميلة، وإن كانت تنساب وتنفلت وتجري، ولكني أعشق المستنقعات، حيث تضطرب حياة خفية، حياة الحيوانات المائية. والمستنقع عالم بأكمله، عالم تتميز له حياته الخاصة، وسكانه المقيمون، ومسافروه العابرون، وأصواته وضجيجه، بل وسره الغامض؟ وليس ثمة شيء يثير الاضطراب والقلق بل والخوف أحيانًا أكثر من مستنقع. ولم ذلك الخوف الذي يحوم على هذه البطاح المنخفضة المغمورة بالماء؟ أهي أصوات الغاب المبهمة، أم ومضات النور التي تنبثق بين حين وحين، أم الصمت المطبق الذي يخيم في الليالي الهادئة؟ أم هو الضباب الغريب الذي يزحف فوق سيقان الغاب، وكأنه يدثرها بالأكفان؟ أو لعله صوت الموج، ذلك الصوت الخفيف الهادئ، وأن يدا في أكثر الأحيان أكثر إشاعة للذعر من مدافع الأناسي أو رعد السماء، ذلك الصوت الذي يحيل المستنقعات عالمًا من نسج الأحلام، عالمًا مخيفًا ينطوي على سر خطير لا يمكن الاهتداء إليه.

لا.. فثمة شيء آخر ينبعث منها، إنه سر أشد عمقًا وأعظم خطرًا، سر يحوم في الضباب الكثيف، لعله سر الخلق بعينه. ألم تضطرب جرثومة الحياة الأولى وتهتز، وتتفتح للحياة في المياه الراكدة الموحلة، في الرطوبة الثقيلة، على الأراضي المبللة، وتحت حرارة الشمس؟

ووصلت إلى بيت ابن عمي في المساء، وكان الجليد يغطي

الأرض، والبرد قارصًا جدًا. وتناولنا العشاء في القاعة الكبيرة حيث صواوين الأطعمة والحوائط والسقف، مغطاة بطيور محنطة، طيور باسطة الجناحين أو جاثمة على أفرع مثبتة بالمسامير، ما بين بيزان وعقبان ونسور وصقور وما إلى ذلك؛ وكان ابن عمي نفسه أشبه بحيوان غريب من حيوانات البلاد الباردة، يرتدي سترة من جلد الفقمة، وكان يحدثني عما أعده لهذه الليلة بالذات.

كان علينا أن نخرج في منتصف الرابعة صباحًا، لنصل حول منتصف الخامسة إلى النقطة التي اختارها مجثمًا لنا. وكانوا قد أقاموا في هذا المكان كوخًا من قطع الجليد ليقينا بعض الشيء لفح الريح الفظيعة التي تسبق طلوع النهار، تلك الريح المثلجة التي تفري اللحم كالمناشير، وتقطعه كالنصال، وتخزه كالإبر المسمومة، وتلويه كالكماشات، وتحرقه كالنار.

وقال ابن عمي وهو يفرك يديه: "لم أر قط جليدًا مماثلًا! لقد هبطت الحرارة إلى ١٢° تحت الصفر، في السادسة مساء".

وذهبت عقب الأكل مباشرة فألقيت بنفسي على سريري، ونمت على ضوء من لهب الموقد المتوهج.

وأيقظت في الساعة الثالثة تمامًا.. فلبست بدوري فروه خروف، وكان ابن عمي كارل يلبس فروه دب. وبعد أن ابتلعنا فنجانين من القهوة المحرقة وكوبين من الكونياك الفاخر، خرجنا يصحبنا أحد الحراس وكلبانا بلونجون وبييرو.

وما كدنا نخطو خطواتنا الأولى خارج المنزل حتى أحسست ببرودة الثلج تنفذ إلى عظامي. كانت ليلة من تلك الليالي التي تبدو فيها الأرض وكأنها ماتت من البرد. وأصبح الهواء القارص كجسم صلب تكاد تمسكه باليد، وما أشد ما كان يسبب من الألم. كان جامدًا، ساكنًا لا تحركه أية نسمة. ولكنه يعض النباتات والحشرات ويتخللها ويجففها ويميتها، وكذلك الطيور الصغيرة التي تسقط من الأغصان على الأرض الصلدة، فتصبح في مثل صلابتها.

وكان القمر في التربيع الأخير، مائلًا على جنبه، وكان شاحبًا يبدو خائر القوى وسط الفضاء، وقد بلغ منه الضعف فلم يعد يستطيع سيرًا، وظل معلقًا في السماء وقد أمسك به القر وشل حركته. وكان ينشر على الكون ضوءه الحزين، ذلك الضوء الشاحب الذي يرسله في آخر أيامه.

وكنت أسير أنا وكارل جنبا إلى جنب وقد تقوس ظهرانا، وأيدينا في جيوبنا، والبندقية تحت ذراع كل منا. وغطينا أحذيتنا بالصوف، حتى نستطيع السير دون أن ننزلق على النهر المتجمد المياه، فلم يكن لسيرنا أي صوت. وكنت أنظر إلى الدخان الأبيض الذي يحدثه تنفس كلبينا.

ولم نلبث أن بلغنا شاطئ المستنقع، ودخلنا في ممر بين أعواد الغاب الجافة، ممر يمتد خلال هذه الغابة الوطيئة.

وكانت مرافقتا تمس الأوراق الطويلة التي تشبه الشرائط فتخلف وراءنا حفيفًا خفيفًا. واستولى على نفسي ذلك الشعور القوي الغريب الذي يثيره

في مرأى المستنقعات، ولكن شعوري هذه المرة كان أعنف مما سبق أن استشعرته في مثل هذه الظروف. وكانت الحياة قد ولت من هذا المستنقع، فمات من شدة البرد، وكنا نسير فوق جدثه بين سيقان الغاب الجافة.

وفجأة، عند منعطف أحد الممرات، لمحت كوخ الجليد الذي بنوه لنلجأ إليه. فدخلت فيه. وكان أمامنا ما يقرب من ساعة قبل أن تصحو الطيور المتجولة، فلففت غطائي حولي التماسًا للدفء.

واضطجعت على ظهري، وأخذت أرمق القمر المشوه، فبدا لي كأن له أربعة قرون، كنت أراها خلال الجدران الشفافة لهذا البيت القطبي.غير أن برد المستنقع المتجمد، وبرد هذه الجدران، والبرد الهابط من السماء، لم تلبث أن نفذت إلى أوصالي فأخذت في السعال.

وانتاب كارل ابن عمي قلق على فقال: "لا ضير علينا إذا لم نصب صيدًا كثيرًا.. المهم ألا تصاب بالزكام، ولنشعل نارًا نستدفئ بها". وأمر الحارس أن يقطع بعض أعواد الغاب.

وهيأنا منها كومة وسط كوخنا، وفتحنا فتحة في سقفه لتتيح للدخان طريقًا للخروج. وعندما صعد اللهب الأحمر على الجدران البللورية الصافية، راحت تذوب على مهل، فكأن هذه الأحجار الجليدية تنقض عرقها. وصاح بي كارل وقد بقى في الخارج: "تعال انظر!". فخرجت وظلت مبهوتًا من الدهشة. كان كوخنا المخروطي الشكل أشبه بماسة ضخمة، اشتعلت النيران في جوفها، واستقرت على جمد المستنقع.

وكان بداخله شبحان غريبان هما شبحا كلبينا اللذين كانا يستدفئان.

لكن صيحة غريبة، صيحة ضالة، صيحة شاردة، مرت من فوق رؤوسنا. كان الوميض المنبعث من كوخنا يوقظ الطيور البرية.

وليس ثمة من شيء تجيش له نفس مثل هذه الصيحة الأولى للحياة التي لا تسمع قط قبل أن يبدو في الأفق الخيط الأول من النهار في أيام الشتاء. ويبدو لي في هذه الساعة الجليدية من الفجر، إن تلك الصيحة الشاردة، إنما هي أنة منبعثة من روح الكون.

وكان كارل يقول: "أطفئ النار.. فها هو ذا.. الفجر!".

وكانت السماء قد أخذت فعلا في الشحوب، وبدأت أسراب البط تنتشر في بقع طويلة سريعة على صفحة السماء، ثم لا تلبث أن تنمحي.وبزغ ضوء في الظلام. كان كارل قد أطلق بندقيته، واندفع الكلبان.

ثم أخذنا نسدد بندقيتينا بين دقيقة وأخرى، تارة هو، وتارة أنا، كلما ظهر على أعواد الغاب ظل لقافلة من الطيور. وكان كلبانًا ببيرو وبلونجون، يحضران لنا –لاهثين فرحين– طيورًا ما برح بعضها ينظر إلينا بعينيه.

وكان النهار قد طلع، نهارًا صحوًا مشرقًا: وكانت الشمس تبزغ عند آخر الوادي. وكنا نفكر في العودة، عندما مر طائران فجأة فوق رؤوسنا. كانا قد مدا رأسيهما وفردا أجنحتهما. وأطلقت بندقيتي. وسقط أحدهما عند قدمي تقريبًا. كانت بطة مائية فضية اللون. وفي تلك اللحظة ارتفع في

الفضاء صياح، صياح طائر. كانت شكاة قصيرة متكررة، تمزق نياط القلب. وأخذ الطائر، الطائر الصغير الباقي، أخذ يدور في السماء الزرقاء المنتشرة فوقنا وهو ينظر إلى رفيقته القتيلة، التي كنت أمسك بها بين يدي.

وكان كارل راكعًا يترصده والبندقية على كفته، وقد توهجت عيناه، وهو ينتظر أن يقترب اقترابًا كافيًا، وقال:

– لقد قتلت الأنثى.. ولن يذهب الذكر.

ولم يرحل الطائر بل بقى يحوم ويبكي حولنا. وما تمزق قلبي قط لأنين مثلما تمزق لهذا النداء الحزين، لهذا العتاب المؤسي الذي كان يرسله هذا الحيوان التائه في الفضاء.وكان يهرب أحيانًا تحت تهديد البندقية التي كانت تتابع تحليقه، وكان يبدو متأهبًا لاستئناف رحلته وحيدًا عبر السماء، ولكنه لم يكن يستطيع أن يحزم أمره، فكان لا يلبث أن يعود ليبحث عن أنثاه.

وقال لي كارل: ضعها على الأرض، فإنه سيقترب منها في الحال.

وكان يقترب بالفعل، مغضيًا عن الخطر، فقد سلب لبه حبه لأنثاه الصريعة.وأطلق كارل بندقيته، فكأن الحبل الذي كان يشد هذا الطائر في السماء قد انقطع.. ورأيت شيئًا أسود يهوي، وسمعت صوت وقوع جسم في الغاب، وأحضره لي ببيرو.

ووضعتهما باردين في الحقيبة نفسها.. وعدت في اليوم نفسه إلى باريس.

الصداق

لم يدهش أحد لزواج الأستاذ لوبرومان من الآنسة جان كوردييه. فقد اشترى الأستاذ لوبرومان مكتب الأستاذ بابيون لتوثيق العقود منذ قليل. وكان يلزمه مال لتسديد ثمنه. والآنسة كوردييه تملك ثلاثمائة ألف فرنك نقدًا، وسندات تدفع لحاملها.

وكان الأستاذ لوبرومان شابًا وسيمًا أنيقًا، أناقة موثق عقود، أناقة ريفية ولكنها أناقة على كل حال، وهو أمر نادر في بلدة بوتنيي– لوريبور.

أما الآنسة كوردييه فهي فتاة رشيقة ناضرة، وهي وإن كانت رشاقتها متصنعة وزينتها مهملة، إلا أنها بالإجمال فتاة جميلة يرغب فيها ويحتفي بها.وقد أقامت حفلات الزواج بلدة بوتنيي وأقعدتها.

وأعجب الناس إعجابًا شديدًا بالعروسين، اللذين راحا ينعمان في منزل الزوجية بعيدًا عن العيون. ثم قررا القيام برحلة قصيرة إلى باريس، بعد أيام الخلوة.

وكانت هذه الخلوة هنيئة حقا، فقد عرف الأستاذ لوبرومان كيف يضفي على علاقاته الأولى بزوجته كل كياسة وكل رقة وكل لباقة. واتخذ له مبدأ: "من صبر نال"، وعرف كيف يكون صبورًا ذا إرادة في وقت معا. وجاء نجاحه سريعًا كاملًا.

فلم تنقض أربعة أيام حتى كانت مدام لوبرومان تعبد زوجها، ولا تستطيع له عوضًا، وكان عليه أن يقضي طيلة النهار إلى جوارها، فتلاطفه وتقبله وتعانقه، وتداعب يديه ولحيته وأنفه، وهلم جرا. وكانت تجلس في حجرة وتمسك به من أذنيه وتقول: "افتح فمك وأغمض عينيك!"، فيفتح فمه في ثقة، ويقفل عينيه، ويتلقى قبلة لذيذة، رقيقة جدًا، طويلة جدًا، تسري لها رعشة في ظهره، ولم يكن لديه من المداعبات والشفاه والأيدي، بل ومن ذاته كلها، ما يكفي لكي يحتفل بزوجته من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح.

فلما انقضى الأسبوع الأول، قال لزوجته الشابة:

– إذا شئت ذهبنا إلى باريس يوم الثلاثاء القادم، وسنفعل ما يفعله العشاق غير المتزوجين. سنرتاد المطاعم والمسارح والمقاهي الراقصة، ونذهب إلى كل مكان.

وقفزت من الفرح:

– نعم! نعم! أوه! نعم! لنذهب إلى هناك بأسرع ما يمكن.

ثم استطرد يقول:

– لا يصح أن ننسى شيئًا، فعليك أن تخبري أباك أن يعد الصداق، فسآخذه معنا، وسأدفع بهذه المناسبة للأستاذ بابيون ثمن المكتب.

فقالت:– سأخطره بذلك غدا صباحًا.

فأمسك بها بين ذراعيه ليستأنف مداعباته الرقيقة التي أولعت بها منذ ثمانية أيام.

وفي يوم الثلاثاء التالي، ذهب الوالدان إلى المحطة في صحبة ابنتهما وزوجها المسافرين إلى العاصمة.

وقال الأب:

– أقسم لك أنه ليس من الحكمة أن تحمل كل هذه النقود في حافظتك.

وابتسم موثق العقود وقال:

– لا تقلق يا حماي، فقد تعودت مثل هذه الأمور، وأنت تعرف أنه يحدث لي أثناء عملي، أن أحمل ما يقرب من مليون فرنك. إننا بهذه الطريقة نتجنب الكثير من الإجراءات والتأخير فلا تقلق من شيء.

وصاح موظف المحطة:

– المسافرون لباريس يصعدون إلى القطار.

فاندفعا إلى إحدى العربات حيث وجدا سيدتين عجوزتين.

وهمس لوبرومان في أذن زوجته:

– شيء يضايق، فلن أستطيع التدخين.

فأجابت بصوت منخفض للغاية:

– وإنه ليضايقني أنا أيضًا، ولكن ليس بسبب سيجارك.

وصفر القطار، وسار. واستمرت الرحلة ساعة زمان لم يتبادلا فيها حديثًا يذكر، لأن المرأتين العجوزتين لم تناما قط.ولما أصبحا في فناء محطة سان لازار، قال لوبرومان لزوجه:

– إذا أردت يا عزيزتي، سنذهب أولا لتناول طعام الغذاء في أحد المطاعم بالشارع الرئيسي ثم نعود لنأخذ حقيبتنا إلى الفندق.

فوافقت على ذلك في الحال:

– آه! هيا بنا نتغدى في المطعم. أهو بعيد؟

فاستطرد يقول:

– أوه! نعم بعيد قليلًا. سنستقل عربة الامنيبوس.

فدهشت:

– ولماذا لا نأخذ عربة خاصة!

فأخذ يؤنبها وهو يبتسم:

– أهكذا يكون اقتصادك؟ عربة خاصة لمسيرة خمس دقائق. تدفعين ثلاثين سنتيما في الدقيقة. آه، أنك لا تريدين أن تحرمي نفسك شيئًا.

فقالت خجلة:

– هذا حق!

ومرت بهما في هذه الأثناء عربة امنيبوس ضخمة تجرها ثلاثة جياد، فصاح لوبرومان:

– أيها السائق! إيه أيها السائق!

فوقفت العربة الثقيلة، ودفع موثق العقود زوجته إليها بسرعة وقال:

– اركبي أنت في داخل العربة، أما أنا فسأصعد فوقها لأدخن لفافة قبل الغداء.

ولم تجد فرصة لتجيبه، فقد أمسك بها السائق، ودفع بها إلى داخل عربته، وسقطت مذعورة على مقعد صغير، وهي تنظر ذاهلة من خلال زجاج النافذة الخلفية إلى قدمي زوجها وهو يصعد إلى سطح العربة.

وبقيت جامدة لا تريم حراكًا، بين رجل بدين تفوح منه رائحة دخان الغليون، وامرأة عجوز تفوح منها رائحة الكلاب.

وكان بقية الركاب مصطفين في صمت، فترى بينهم صبي البقال والعاملة، وجاويشا من سلاح المشاة، وسيدًا يلبس عوينات مذهبة وتغطي رأسه قبعة حريرية ذات أطراف عريضة، رفعت كالمزراب، وسيدتين عليهما إمارات الكبر والشراسة، ويبدو من جلستهما كأنما تقولان: "نحن هنا بينكم.. ولكن قدرنا أعظم من ذلك بكثير"، وراهبتين طيبتين، وغانية شعثاء الشعر، وحامل نعوش الموتى. كانوا أشبه بمجموعة من الصور الكاريكاتورية رصت في متحف ساخر، أو مجموعة من الأشكال الغريبة

للوجوه البشرية تشبه تلك الصفوف من الدمى المضحكة التي يلهو الناس بقذفها بالكرات فيسقطونها، في الأسواق الموسمية.

وكان ما يصيب العربة من اضطراب يحرك رءوسهم ويهزها، ويبعث رجفة خفيفة في جلد الخدود الرخوة. كما كان ارتجاج العجلات يدوخهم فيبدون كالبلهاء الغافين.

واحتارت المرأة الشابة، وجعلت تقول لنفسها وقد أطبق عليها حزن مبهم:

- "لم لم يدخل معي، حقا لقد كان يستطيع أن يصبر على هذه اللفافة".

وأشارت الراهبتان للسائق بالوقوف، ثم خرجت الواحدة أثر الأخرى، وهما تنشران رائحة الملابس العتيقة.

واستأنفت العربة السير، ثم وقفت من جديد، وصعدت طاهية، حمراء مبهورة الأنفاس، وجلست، ثم وضعت سلة المؤن على ركبتيها وعبقت العربة برائحة ماء الغسيل.

وفكرت جان:

- إن المسافة أبعد مما كنت أتصور.

ونزل حامل النعوش، وأخذ مكانه سائق عربة تفوح منه رائحة الاصطبل، وحل محل الغانية الشعثاء الشعر سمسار يشيع من قدميه أريج

جولانه الطويلة.واستشعرت زوجة موثق العقود ضيقًا وتقززًا، وأحست ميلا للبكاء، دون أن تدري لذلك سببًا.

ونزل أشخاص وصعد آخرون، والعربة ماضية في سبيلها، مخترقة طرقات لا تنتهي، وتقف في محطة، وتعاود المسير.

وكانت جان تحدث نفسها قائلة:

– ما أطول الطريق، أرجو ألا يكون قد سها، ألا يكون قد غلبه النوم، فقد أجهد نفسه كثيرًا منذ بضعة أيام.

ونزل الركاب جميعا شيئًا فشيئًا، وبقيت هي وحدها، وحدها ولا أحد غيرها.

وصاح السائق:

– فوجيرار.

ولم تتحرك، فصاح ثانية.

– فوجيرار.

ونظرت إليه. فقد أدركت أن هذه الكلمة موجهة إليها، فلم يبق أحد من الركاب بقربها، وقال الرجل للمرة الثالثة:

– فوجيرار.

وعندئذ سألته:

– أين نحن؟

فأجاب في صوت غليظ:

– إننا في فوجيرار، فقد قررت ذلك عشر مرات.

فقالت:

– أهو بعيد الشارع الرئيسي؟

– أي شارع رئيسي؟

– شارع الإيطاليين.

– لقد تجاوزناه منذ وقت طويل.

– آه! هل تتفضل بإخبار زوجي.

– زوجك؟ وأين هو؟

– ولكن.. في الطابق العلوي!

– الطابق العلوي؟ لم يبق فيه أحد منذ وقت طويل.

فبدت عليها إمارات الرعب.

– كيف هذا؟ لا يمكن هذا، لقد ركب معي، أنعم النظر، أنه موجود لا ريب.

وغدا السائق فظا فقال:

– هيا يا صغيرتي، كفى هذرا، إذا كنت قد فقدت رجلًا، فستجدين عشرة غيره. اذهبي وسوف تجدين غيره في الطريق.وصعدت الدموع إلى عينيها، وقالت في إصرار:

– ولكن يا سيدي أنت مخطئ، أؤكد لك أنك مخطئ، لقد كان يحمل تحت أبطه حافظة كبيرة.

وأغرق الرجل في الضحك:

– حافظة كبيرة، آه! نعم! لقد نزل في محطة المادلين، لا يهم، لقد تركك.. ها! ها! ها.

ووقفت العربة فنزلت منها، ونظرت إلى سقفها في حركة لاشعورية.. كان خاليًا تمامًا. وأنشأت تبكي وبصوت مرتفع، ودون أن تفكر في أن الناس يرقبونها، ويصغون إليها، ويحملقون فيها، وقالت:

– ماذا أفعل وأي مصير انتهي إليه؟

واقترب مفتش المكتب وسأل:

– ماذا بك؟

فأجاب السائق في لهجة ساخرة:

– إنها سيدة هجرها زوجها في الطريق.

واستطرد الآخر يقول:

- حسنا، لا يهم، انتبه أنت إلى عملك.

ودار على أعقابه.

وعندئذ أخذت تسير هائمة على وجهها حائرة مضطربة، لا تفهم ما حل بها. إلى أين تذهب؟ ما الذي ستفعل؟ ما الذي حل به هو؟ ومن أين أتت هذه الغلطة الفريدة، هذا النسيان، هذا الخطأ، هذه الغفلة الشديدة التي لا تصدق؟

ولم يكن بجيبها سوى فرنكين فالي من تتوجه؟ وفجأة تذكرت ابن عمها بارال، رئيس المكتب المساعد بوزارة البحرية. كانت تملك ما يكفي دفع أجرة مركبة خاصة، فتوجهت إلى منزله، ولقيته بينما كان يتأهب للذهاب إلى الوزارة، وكان مثل لوبرومان، يحمل حافظة كبيرة تحت أبطه.

نزلت مسرعة من العربة وصاحت به:

- هنري.

فتوقف دهشا وقال:

- جان؟ هنا؟ وحدك؟ وماذا تفعلين، ومن أين أنت آتية؟

فهمست وعيناها مغرورقتان بالدموع:

- لقد تاه زوجي منذ قليل.

- تاه؟ وأين؟

– في عربة الامنيبوس.

– في عربة الامنيبوس؟ أوه!

وقصت عليه قصتها، وهي تبكي. كان يصغى إليها مفكرًا، وسألها:

– هل كان هادئ البال تمامًا، هذا الصباح؟

– نعم.

– حسنا! أكان يحمل مالًا كثيرًا؟

– نعم، كان يحمل صداقي!

– الصداق؟ بأكمله؟

– بأكمله.. ليسدد ثمن مكتبه.

– حسنا، يا ابنة عمي العزيزة، إن زوجك في هذه الساعة يتلمس طريق الهروب إلى بلجيكا.

ولم تفهم.. وأخذت تتمتم:

– زوجي.. تقول؟

– أقول أنه سرق.. سرق رأس مالك.. هذا هو كل ما في الأمر.

وظلت واقفة تخنقها العبرات. ثم همست:

– إذن هو.. هو.. هو نذل!

ثم هوت خائرة القوى على صدر ابن عمها وهي تنتحب.

وتوقف الناس محملقين فيهما، فدفعها بهدوء إلى مدخل البيت. وصعد بها السلم وهو يسندها.. وفتحت لهما الخادمة الباب دهشة، فأمرها قائلًا:

– صوفي، أسرعي إلى المطعم، وأحضري طعامًا لشخصين... فلن أذهب اليوم إلى الوزارة.

احتفال

قال الكابتن الكونت دي جارانس:

– آه أعتقد أنني أذكر جيدًا عشاء عيد الغطاس الذي تناولناه إبان الحرب.

كنت في ذلك الحين ضابط صف في الفرسان، وكنت أجول منذ خمسة عشر يومًا مستكشفًا أمام طليعة ألمانية. وفي اليوم السابق كنا قد قتلنا بعض الفرسان الألمان بالسيوف، وفقدنا ثلاثة من رجالنا منهم ذلك المسكين رودفيل، إنكم لتذكرون دون شك، جوزيف دي رودفيل.

وفي ذلك أمرني قائد فرقتنا باصطحاب عشرة فرسان واحتلال قرية بورتيران. وحراستها طيلة الليل. وفي هذه القرية تحاربنا خمس مرات في ثلاثة أسابيع. ولم يبق قائمًا في هذه النقطة الخطرة عشرون بيتًا، أو اثنا عشر ساكنًا.

وهكذا أخذت عشرة فرسان ورحلت في الساعة الرابعة. وبلغنا مشارف قرية بورتيران في الساعة الخامسة وسط الظلام. وتوقفت وأمرت مارشاس –وأنتم تعرفون ولاشك ببير دي مارشاس– الذي تزوج فيما بعد الآنسة مارتل أوفلان، ابنة الماركيز دي مارتل أوفلان– أقول أمرت مارشاس أن يدخل القرية وحده وأن يوافيني بالأخبار.

ولم أتخير غير متطوعين من أبناء الأسر الكريمة، وأنه لما يبعث

السرور أثناء خدمتنا العسكرية ألا نرفع الكلفة مع الأغبياء، وكان مارشاس هذا لبقا لا مثيل له في لباقته، داهية كالثعلب، مرنا كالثعبان. وكان يعرف كيف يكتشف البروسيين كما يكتشف كلبه الصيد قنيصته. ويحضر لنا طعامًا في مكاننا ، فقد كدنت بأن نموت به جوعًا لولاه، ويحصل على معلومات من جميع الناس، معلومات موثوق بها دائمًا وكل ذلك في مهارة تفوق الوصف.

وعاد بعد عشرة دقائق وقال:

– الحالة حسنة، لم يمر أي بروسي من هنا منذ ثلاثة أيام، وقد تحدثت مع إحدى الراهبات وهي تقوم على شئون أربعة أو خمسة من المرضى في دير مهجور.

فأمرت بالتقدم ودخلنا الشارع الرئيسي، وكنا نشاهد في غموض، عن يمين وعن يسار جدرانا لا سقف لها. لا تكاد ترى في الظلام البهيم. وكنا نلمح أحيانًا ضوءًا يلمع خلف زجاج إحدى النوافذ، فثمة أسرة بقيت لتحرس ما بقى من بيتها. أسرة من الشجعان أو الفقراء المساكين. وتساقط المطر.. مطر دقيق قارس البرودة كان يجمد الدم في عروقنا بمجرد أن يلمس معاطفنا وقبل أن يبللنا. وكانت الخيول تتعثر في الحجارة وفي قطع الأخشاب والأثاث. وكان مارشاس يدلنا على الطريق وهو يسير راجلًا أمامنا، ويجر حصانه من لجامه. فسألته:

– إلى أين تذهب بنا يا مرشاس؟

فأجاب:

– عندي لكم مأوى.. مأوى طيب.

ووقف بعد قليل أمام بيت صغير من بيوت الأعيان وكان مغلقًا وهو مبني على الطريق وله حديقة تمتد في الجهة الخلفية منه.

وحطم مارشاس قفل الباب مستعينا بحجر كبير التقطه بجانب السور ثم ارتقى درج الشرفة. وانتزع باب الدخول وهو يركله بقدميه ويدفعه بكتفيه. وأنار قطعة من شمع كان يحتفظ بها في جيبه دائمًا، ودلف أمامنا في البيت الفاخر الوثير وكان يتقدمنا في ثبات عجيب، وكأنه سبق له أن سكن في هذا المنزل مع أن هذه أول مرة يراه فيها.وبقى جنديان في الخارج لحراسة خيلنا.

وقال مارشاس لبونديريل الذي كان يتبعه:

– لابد وأن تكون الاصطبلات على يسار البيت. لاحظت ذلك عند دخولنا، اذهب وادخل فيها ما لسنا في حاجة إليه من خيل.

ثم تحول إلى وقار:

– إصدر أوامرك بحق الله.

وكان هذا الفتى يدهشني دائمًا.

فأجبت ضاحكًا:

– سأضع حراسًا في مشارف القرية وسألتقي بك هنا.

وسأل:

– وكم رجلًا ستصحب معك؟

– خمسة. وسيتولى الآخرون الحراسة بدلهم في العاشرة مساء.

– حسنا. وستترك لي أربعة لإحضار المؤن وتجهيز الطعام وإعداد المائدة وسأعثر أنا على مخبأ النبيذ.

وخرجت أستكشف الشوارع المقفرة، ووصلت إلى مخرج القرية، عند الحقول لأضع حراستي.

وعدت بعد نصف ساعة، فوجدت مارشاس ممددًا في مقعد وثير من طراز فولتير، وكان قد نزع عنه غطاءه غاية في الفخفخة– على حد قوله– وكان يدفئ قدميه قرب النار، وراح يدخن سيجارًا فاخرًا ملأ عبيره الغرفة. كان يجلس وحيدًا وقد وضع مرفقيه على ذراعي المقعد، غارت رأسه بين كتفيه وتوردت وجنتاه وبرقت عيناه وبدت على محياه أمارات الابتهاج.

وسمعت جلبة تحدثها الصحاف في الحجرة المجاورة وقال لي مارشاس وهو يبتسم في سعادة:

– الأمر على ما يرام، فقد وجدت نبيذ بوردو في حظيرة الدجاج، والشمبانيا تحت درج الشرفة الأمامية، وشراب العرق – خمسين زجاجة من الصنف الممتاز– وجدتها في البستان تحت شجرة كمثرى لم تبد لي

مستوية الساق في ضوء المصباح. أما عن الطعام فلدينا دجاجتان وإوزة وبطة وثلاث حمامات وطائر آخر وجدناه في أحد الأقفاص. الكل طيور كما ترى، وكله ينضج الآن، إنها بلدة رائعة.

وجلست أمامه، وكانت نار المدفأة تصلى أنفي وخدي.

فسألت:

– أين وجدت هذا الخشب؟

فغمغم يقول:

– خشب فاخر، إنه خشب عربة السيد، عربة من الطراز المفتوح. إن الطلاء هو الذي يعطي هذا اللهيب، فهو مزيج الكحول والورنيش، إنه بيت فاخر.

وكنت أضحك لفرط ظرفه.

– تصور أنه عيد الغطاس، عيد الملوك. لقد جعلتهم يضعون فولة في الإوزة ولكن ليس هناك ملكة، إنه لأمر مزعج حقا!

وجعلت أردد كلامه كرجع الصدى:

– إنه لأمر مزعج! ولكن ماذا تراني أستطيع أن أصنع؟

– أن تجد واحدة بحق الله.

– واحدة من أي شيء؟

– من النساء.

– نساء؟ أنت مجنون.

– لقد عثرت أنا على العرق تحت شجرة كمثرى، والشمبانيا تحت درجات الشرفة الأمامية. ولم يكن ثمة ما يدلني عليها. أما أنت فلديك الملابس، إنها وحدها علامة مؤكدة تدلك على النساء، ابحث يا عزيزي.

وكان يبدو جادًا رزينًا، ومقتنعًا بما يقول. بحيث لم أعد أعرف أن كان يهزل أم لا. فأجبت:

– إنك تهزل دون شك يا مارشاس.

– أنا لا أهزل قط أثناء الخدمة.

– ولكن خبرني أيها الشيطان أين تريدني أن أجد النساء؟

– حيثما تريد. لابد وأنه قد بقيت منهن اثنتان أو ثلاث في البلدة، فتش عنهن وأحضرهن.

فنهضت، وكانت الحرارة شديدة أمام نار المدفأة، واستطرد مارشاس يقول:

– هل تريد رأيي؟

– نعم.

– أذهب وقابل القسيس.

– القسيس؟ ولماذا؟

– أدعه للعشاء، وأسأله أن يحضر معه امرأة.

– القسيس! وامرأة! ها! ها! ها..

واستطرد مارشاس يقول في وقار عجيب:

– إنني لا أهزل. اذهب وقابل القسيس، وحدثه بموقفنا، لابد أنه ضجر جدًا. وسيأتي. ولكن أخبره بأنه تلزمنا امرأة على الأقل، امرأة كما يجب ما دمنا من أهل الطبقة الراقية لاشك أنه يعرف جيدًا رعاياه من النساء فلو كانت هناك واحدة تناسبنا، ولو أنك أحسنت التصرف فسوف يدلك عليها.

– اسمع يا مرشاس، ماذا تعني بذلك؟

– يا عزيزي جارانس، أنك تستطيع أن تفعل ذلك في يسر. سيكون الأمر مسليًا للغاية، نحن نعرف كيف نتصرف بحق الله! وسنتحلى بالصفات الطيبة، وسنتصرف بمنتهى اللباقة. اذكر أسماءنا للقس، اجعله يضحك ويرق لنا، واعمل على إغرائه وإقناعه.

– كلا هذا مستحيل.

فأدنى مقعده الوثير مني، ولما كان يعرف مواطن الضعف في، استطرد الشيطان يقول:

– فكر، كم سنفخر بهذا العمل وسنتسلى بروايته. سيكون حديث

رجال الجيش جميعا، وسنذيع شهرتك في الخافقين.

وتردد لما في هذه المغامرة من إغراء. ولكنه ألح وقال:

– هيا يا عزيزي جرانس، أنت رئيس الفصيلة، وأنت وحدك تستطيع أن تذهب وتقابل الرئيس الديني في هذه البلدة، أرجوك أذهب إليه. سأصوغ القصة شعرًا وسأرويها في "مجلة العالمين" بعد الحرب، أعدك بذلك أن هذا حق رجالك عليك، فقد أتعبتهم من السير شهرًا بطوله.

ونهضت وأنا أسأله:

– أين دار القسيس؟

– خذ الشارع الثاني على اليسار. وستجد شارعًا آخر في أقصاه ثم في نهاية هذا الشارع تقع الكنيسة، وبجوارها بيت القسيس.

وخرجت وصاح بي:

– اذكر له قائمة الطعام لتثير شهيته.

واكتشفت دار القسيس الصغيرة في غير عناء، بجوار كنيسة كبيرة كئيبة المنظر بنيت من الآجر وقرعت الباب بقبضة يدي فلم يكن للباب جرس أو مطرقة، وسأل صوت قوى من الداخل:

– من هناك؟

فأجبت:

– ضابط صف الفرسان

وسمعت ضجة مزلاج ومفتاح يدار ثم وجدت نفسي أمام قسيس مديد القامة بارز الكرش، صدره صدر مصارع، وقد شمر ساعديه وبدت يداه ضخمتين، وكان أحمر الوجه تبدو عليه أمارات الطيبة وحييت بالتحية العسكرية وقلت له:

– عم صباحاً يا سيدي القسيس.

وكان يخشى مفاجأة أو كمين لصوص فابتسم وهو يجيب:

– عم صباحاً يا صديقي.. ادخل

فتبعته إلى حجرة صغيرة ذات بلاط أحمر، حيث كانت تضطرم نار هزيلة، تختلف تماماً عن النار التي أوقدها مارشاس.

وأشار إلى مقعد ثم قال لي:

– ما هي الخدمة التي أستطيع أن أؤديها إليك؟

– اسمع لي يا سيدي القسيس أن أقدم نفسي أولاً..

ومددت له يدي ببطاقتي ، فأخذها وقرأ في صوت خفيض:

–"الكونت دي جارانس"

واستطردت أقول:

– نحن هنا أحد عشر رجلاً يا سيدي القسيس، خمسة منا يقومون

بالحراسة وستة ينزلون في بيت رجل لا نعرفه من أبناء القرية، أما هؤلاء الستة فهم جارانس الماثل أمامك، وبير دي مارشاس، لودوفيج دي بوندريل، البارون ديتربي، كارل ماسوليني، ابن الرسام، وجوزيف هربون وهو موسيقى شاب. ولقد جئت أرجو بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عنهم أن تشرفنا بتناول العشاء معنا. إنه عشاء عيد الغطاس يا سيدي القسيس، ونحن نرجو أن نجعله عشاء مرحاً.

وابتسم القسيس وغمغم يقول:

– يبدو لي أنها فرصة مناسبة للمرح

فأجبت:

– إننا نحارب كل يوم يا سيدي، ولقد مات أربعة عشر من رفاقنا منذ شهر، وتركنا ثلاثة منا صرعى على أرض المعركة أمس.. إنها الحرب. إننا نقامر بحياتنا في كل لحظة، ألا يحق لنا إذن أن نقامر بها في مرح؟ نحن فرنسيون، نحب الضحك ونعرف كيف نضحك أنى كنا. كان آباؤنا يقهقهون وهم على المقصلة! ونحن نريد أن ننتعش قليلاً هذا المساء؛ وأن نمرح كأناس مهذبين، لا كأوباش الجنود، أنك تفهمني. فهل نحن على خطأ؟

فأجاب بحرارة:

– إنك على حق يا صديقي، إنني أقبل دعوتك بسرور عظيم.

وصاح:

– هرمانس!

فظهرت فلاحة عجوز مقوسة الظهر مغضنة الجلد، فظيعة الشكل، وسألت:

– ماذا هناك؟

– لن أتعشى هنا يا ابنتي.

– وأين ستتعشى إذن؟

– مع السادة الفرسان.

وودت أن أقول: احضر معك خادمتك لأرى كيف سيكون وجه مارشاس، ولكنني لم أجرؤ واستطردت أقول:

– ألا تجد بين رعاياك الباقين في القرية واحداً أو واحدة يمكنني أن أدعوها أيضاً؟

فتردد وبحث في ذاكرته ثم قال:

– كلا.. لا أحد

وألححت عليه:

– لا أحد!.. هيا يا سيدي القسيس، ابحث في ذاكرتك فإنه لمما يضفي على الحفل بهجته أن نجد سيدات، أقصد عائلات. لست أعرف من؟ الخباز وزوجه الـ.. الـ.. الساعاتي.. الـ.. الاسكاف الـ.. الصيدلي

وزوجته.. فلدينا طعام جيد ونبيذ، وسنكون سعداء إذ نترك ذكرى طيبة عند أهل هذا المكان.

وفكر القسيس طويلاً مرة أخرى، ثم قال في حزم:

– كلا، لا أحد.

واستغرقت في الضحك.

– بحق الله يا سيدي القس: من المؤلم حقا أن لا يكون بيننا ملكة فلدينا فولة[1]. هيا ابحث ألا يوجد هناك عمدة متزوج أو رئيس شرطة متزوج أو مدرس متزوج؟

– كلا فقد رحلت السيدات جميعاً

– كيف ألا توجد في البلدة كلها زوجة من الأعيان الطيبات مع زوج نستطيع أن نتيح لهما هذه الفرصة السعيدة، ستكون فرصة سعيدة لكليهما، بل فرصة عظيمة، في الظروف الحاضرة.

ولكن القسيس تملكه فجأة ضحك عنيف كان يهزه بأكمله، وجعل يصيح:

– ها! ها! ها! لدي بغيتك! بحق العذراء، لدى بغيتك، ها! ها!

---

[1] من عادة الفرنسيين في ذلك العيد أن يضعوا فولة في الطعام. ومن تقع الفولة من نصيبه يكون ملك الحقل أو ملكتها.

ها! سوف نضحك يا أولادي، سنضحك، أما هن فسيفرحن كل الفرح، نعم أشد الفرح ها! ها! أين تقيمون؟

فشرحت له موقع البيت، وفهم هو.

– حسنا أنه ملك السيد برتان– لافاي. سأكون هناك بعد نصف ساعة مع أربع سيدات! ها! ها! أربع سيدات!!!

وخرج معي وهو لا يزال يضحك وافترق عني وهو يردد:

– موافق، إلى اللقاء بعد نصف ساعة، في بيت مارتان لافاي وأسرعت بالعودة وقد أخذتني الدهشة والحيرة.

ولما لمحني مارشاس سألني:

– كم صحفة؟

– إحدى عشرة صحفة، فنحن ستة من الفرسان، أضف إلى ذلك القسيس وأربع سيدات.

وارتج عليه.. وانتصرت أنا.

وراح يردد:

– أربع سيدات! تقول أربع سيدات؟

– أقول: أربع سيدات

– نساء حقيقيات!

– نساء حقيقيات.

– بالله اقبل.. تهانئي

– قبلتها فأنا أستحقها

وترك مقعده الوثير وفتح الباب فلمحت مفرشاً جميلاً أبيض مبسوطاً على مائدة مستطيلة، وحولها ثلاثة من الفرسان في مبدعات زرقاء، كانوا يرتبون صحافاً وأكواباً.

فصاح مارشاس: – "ستكون هناك نساء"

وأخذ الرجال الثلاثة يرقصون وهم يهتفون بأعلى صوت وأعد كل شيء وانتظرنا ساعة تقريباً، وشاعت في أرجاء البيت رائحة لذيذة، رائحة الطيور المشوية.

ونهضنا جميعاً في وقت واحد إثر طرقة على خشب النافذة، وأسرع بوندريل ليفتح الباب، وبعد دقيقة تقريباً، ظهرت راهبة صغيرة الحجم صغيرة الحجم جدا، كانت هزيلة متغضنة الجلد خجلة، وأخذت تحيي الفرسان الأربعة المبهوتين الذين أخذوا ينظرون إليها وهي داخلة وانبعثت من خلفها أصوات عصى تطرق بلاط الدهليز وما إن بلغت غرفة الاستقبال حتى رأيت ثلاث عجائز في قلانسهن البيضاء وقد أقبلن الواحدة إثر الأخرى، يتهادين في حركات متنافرة، واحدة تميل يميناً، والثانية تميل يساراً، وتقدمت النسوة الثلاث يعرجن، ويجررن أرجلهن،

وقد هدهن المرض وشوهتهن الشيخوخة، كن ثلاثا عاجزات كليلات، وهن المريضات الثلاث الوحيدات اللاتي يستطعن المشي في الملجأ الذي تديره الأخت سان بنوا.

والتفتت نحو مريضاتها وكلها عطف عليهن ثم قالت لي لما رأت الشرائط الدالة على رتبتي كضابط صف .

- أشكرك شكراً جزيلاً يا حضرة الضابط لتفكيرك في هاتيك النساء فهن لا يتمتعن بالحياة إلا قليلاً، وإنه لشرف عظيم وسعادة عظيمة إذ تفكر في دعوتهن إلى هذه الوليمة!

ولمحت القسيس وكان قد بقى في الدهليز المظلم ليضحك من أعماق قلبه، وأخذت أضحك بدوري أنا أيضاً لاسيما وأنا أنظر إلى وجه مارشاس. ثم أشرت إلى الراهبة وزميلاتها بالجلوس وقلت:

- تفضلي بالجلوس أيتها الأخت، نحن فخورون وسعداء جداً إذ قبلتن دعوتنا المتواضعة.

فأخذت ثلاثة مقاعد كانت بجوار الحائط وضعتها أمام المدفأة وقادت إليها نساءها الثلاث وأجلستهن عليها ثم نزعت عنهن عصيهن وشالاتهن ووضعتها في ركن الغرفة، وأشارت إلى السيدة الأولى وكانت نحيلة، ذات بطن كبيرة، مصابة بالاستسقاء من غير شك، وقالت:

- هذه هي الأم بوميل، التي مات زوجها بعد أن سقط من أعلى

السقف، وقضى ابنها في أفريقيا، إنها في الثانية والسبعين.

وأشارت إلى الثانية، وكانت مديدة القامة يهتز رأسها بلا انقطاع، وقالت:

– أما هذه فهي الأم جان جان، في السابعة والستين من عمرها، لا تكاد ترى فقد أصيب وجهها في حريق نصف ساقها اليمني..

وأخيراً أشارت إلى الثالثة، وكانت أشبه بقزم، لها عينا جاحظتان واستعان تديرهما ببلاهة في كل اتجاه. وقالت:

– إنها لابوتوا، وهي امرأة ساذجة في الرابعة والأربعين فحسب وحييت النسوة الثلاث، وكأني أقدم إلى مقامات ملكية ثم استدرت إلى القسيس وقلت:

– يا سيدي القسيس إنك رجل عظيم، ونحن ندين لك جميعاً بالشكر.

وكان الكل يضحكون إلا مارشاس الذي بدا شديد السخط وصاح كارل ماسوليني فجأة:

– لقد أعد الطعام أيتها الأخت سان بنوا

فرأيتها تتقدمنا مع القسيس، ثم أنهضت الأم بوميل، وأخذت ذراعها وجررتها إلى الحجرة المجاورة في جهد مضن، فقد كانت بطنها المنتفخة تبدو أثقل من الحديد.

وحمل بوندريل البدين الأم جان جان التي كانت تصرخ لنحضر لها عكازها. وقاد جوزيف هربون القصير المرأة لا بوتوا البلهاء إلى حجرة المائدة التي عبقتها رائحة اللحوم

وما إن جلس كل منا أمام صحفته حتى صفقت الأخت سان بنوا بيديها ثلاثاً، فرسمت السيدات الثلاث علامة الصليب كبيرة سريعة، في دقة أشبه بدقة الجنود الذين يرفعون السلاح، ثم تلا القسيس في بطء صلاة ما قبل الطعام باللاتينية.

وجلسنا، وقدمت الدجاجتان، وقد أحضرهما مارشاس الذي آثر أن يقوم على خدماتنا حتى لا يشارك في هذه الوليمة المضحكة.

أما أنا فقد صحت "عجل بالشمانيا" وقفزت الفلينة محدثة صوت انطلاق الرصاص من المسدس، وعلى الرغم من معارضة القسيس والراهبة الطيبة، فإن الفرسان الثلاثة الجالسين بجوار الكسيحات الثلاث، أفرغوا أكوابهم بالقوة في أفواههن.

أما ماسوليني الذي كان يستطيع أن يعد نفسه في بيته أينما كان وأن يتبسط مع الجميع، فقد راح يغازل الأم بوميل بطريقة مضحكة للغاية، وهذه المرأة ذات البطن الكبيرة قد احتفظت بمرحها رغم المصائب التي حاقت بها، وكانت تجيبه مداعبة في صوت رفيع يبدو متصنعاً، وأخذت تضحك بملء فيها من نكات جارها حتى أن بطنها المنتفخة كانت تبدو كأنها تكاد تصعد على المائدة وتتدحرج عليها. وأخذ هربون القصير يعمل

جاداً في إسكار البلهاء، أما البارون ديتريي– وهو ليس بالرجل الألمعي– فأخذ يسأل المرأة جان جان عن حياتها وعادات الملجأ ونظمه.

وأخذت الراهبة وقد ذعرت تصيح بماسوليني:

– أوه! أوه! إنك ستمرضها، لا تجعلها تضحك على هذا النحو، أرجوك يا سيدي أوه! سيدي..

وكانت تنهض وتنقض على هربون لتنتزع من يده كوباً مليئا بالشراب كان يفرغها بسرعة بين شفتي المرأة لا بوتوا.

وكان القسيس يضحك ملء شدقيه ويكرر للأخت:

– اتركيه، فإن مرة واحدة لا تؤذيهن في شيء، اتركيه إذن

وبعد الدجاجتين أكلنا البطة، وحولها الحمامات الثلاث والطائر الآخر. وظهرت الأوزة يتصاعد منها الدخان. ذهبية اللون تفوح منها رائحة الشواء الدسم.

وانتعشت المرأة بوميل وراحت تخبط بيديها، ولفت جان جان عن الإجابة على أسئلة البارون الكبيرة. وأخذت لابوتوا ترسل همهمات الفرح، شيئاً أشبه بالصياح أو هو أشبه بالتنهدات، كما يفعل الصغار عندما يرون الحلوى. وقال القسيس:

– أتسمحون لي بأن أعالج هذا الحيوان؟ فلا يوجد من يجارني في هذه الأمور

– بالتأكيد يا سيدي القسيس.

وقالت الأخت:

– هل تفتح النوافذ قليلاً ؟ فقد ارتفعت حرارتهن. وأنا واثقة من أنهن سيمرضن.

والتفت إلى مارشاس وقلت:

– افتح النافذة لحظة.

ففتحها، ودخل الهواء البارد من الخارج، فجعل لهب الشموع يترجح ودخان الأوزة يدور وكان القسيس ينزع جناحيها في مهارة فنية، وقد لف منشفة حول رقبته.

وأخذنا ننظر إليه وهو يعالجها دون أن يتكلم وقد استغرقنا عمل يديه الماهرتين، وتملكتنا شهية جديدة للأكل عند رؤية هذا الطائر السمين المذهب، الذي أخذت أطرافه تسقط الواحدة تلو الأخرى في الصلصة الداكنة في قاع الصحفه.

وفجأةن وسط هذا الكون الشره، الذي أثار انتباهنا طرق أسماعنا صوت آت خلال النافذة المفتوحة، صوت طلقة رصاص بعيدة.

ونهضت في سرعة فائقة. حتى أن مقعدي تدحرج خلفي، وصحت:

– امتطوا جيادكم! أما أنت يا مارشاس فستصحب معك فارسين

وستذهب لتقصى الأخبار. وإني أنتظرك هنا بعد خمس دقائق.

وبينما ابتعد الفرسان الثلاثة بجيادهم في الظلام، امتطينا خيلنا أنا والفارسين الباقيين، ووقفنا أمام شرفة الفيلا، أما القسيس والراهبة والنسوة الثلاث فقد برزت وجوههم المفزوعة من النوافذ.

ولم نعد نسمع سوى نباح كلب في الحقول، فالمطر قد انقطع، والجو بارد، شديد البرودة. وبعد قليل سمعت من جديد، خبب جواد.. جواد واحد يعود

كان هو مارشاس فصحت به:

– حسنا؟

فأجاب:

– لا شيء البتة، لقد أصاب فرانسوا فلاحا عجوزاً رفض أن يجيبه عندما صاح به من أنت؟ وظل يتقدم على الرغم من أنه أمره بأن يتحول على عرض الحقول. وعلى كل حال، فسيحضرونه. وسنعرف جلية الأمر، وأمرت بإعادة الجياد على الاصطبل وبعثت بالفارسين للقاء الآخرين ثم دخلت إلى المنزل.

وأنزلت أنا والقسيس ومارشاس خشبة إلى غرفة الاستقبال لكي نرقد عليها الجريح. ومزقت الراهبة منشفة وجعلت تعد رباطاً.. بينما بقيت النسوة الثلاث المذعورات قابعات في ركن من الغرفة.

وبعد قليل سمعت حفيف سيوف على قارعة الطريق. فأخذت شمعة لأنير السبيل للرجال العائدين: وظهروا يحملون هذا الشيء الجامد المسترخي الطويل الكثيف الذي يصير إليه جسم الإنسان عندما تبدأ الحياة في مفارقته.

ووضعنا الجريح على الخشبة التي أعدت له، وأدركت من النظرة الأولى أنه يحتضر

كان يشهق ويبصق دماً اثر كل شهقة من شهقاته، فيسيل الدم من ركني شفتيه. وكان الرجل مغطى بالدم. وخداه ولحيته وشعره وعنقه وثيابه تبدو كأنها دعكت به وغمست في دم أحمر. وكان هذا الدم قد جمد عليه وأصبح منظره فظيعاً.

وكان العجوز، الملفوف في رداء من وبر المعز الطويل الذي يلمسه الرعاة، يفتح من وقت لآخر عينيه الكثيبتين الخابيتين المجردتين عن كل معنى واللتين كانتا تبدوان غبيتين من الدهشة كعيون الحيوان يعد أن يصبيه الصياد، ثم يقع تحت قدميه مشرفاً على الموت، وناظراً نظرة بلهاء من المفاجأة والرعب.

وصاح القسيس:

– آه! إنه الشيخ بلاسيد، فلاح آل مولان العجوز، إن المسكين أصم الأذنين ولم يسمع شيئاً. آه! يا إلهي لقد قتلتم هذا البائس.

وكانت الراهبة قد فتحت السترة والقميص وأخذت تنظر إلى ثقب بنفسجي في وسط الصدرن انقطع الدم عن السيلان منه، وقالت:

– لم يعد هناك ما يمكن عمله.

وكان الفلاح يلهث بشكل بشع ويبصق دماً مع كل نفس من أنفاسه الأخيرة، وكنا نسمع قرقرة حزينة تسري من حنجرته حتى أقاصى رئتيه ، ووقف القسيس ورفع يده اليمني ورسم علامة الصليب ونطق في صوت بطيء وقور، بالكلمات اللاتينية التي تطهر الأرواح.

وقبل أن ينتهي من صلواته ارتج العجوز رجة قصيرة كما لو كان قد انكسر بداخله شيء ما. وكف عن التنفس.. لقد مات .

واستدرت فرأيت مشهداً أشد هولاً من احتضار هذا التاعس المسكين. فقد وقفت العجائز الثلاث والتصقت كل منهن بالأخرى فظيعات المنظر، وامتلأت وجوههن رعباً وفزعا.

فاقتربت منهن وكن قد أخذن يرسلن صيحات حادة، ويحاولن الهرب كما لو كنت سأقتلهن أيضاً.

وسقطت المرأة جان جان على الأرض فلم تعد ساقها المحروقة تستطيع حملها.

أما الأخت سان بنوا فقد تركت الميت، وجرت نحو كسيحاتها وغطتهن بشالاتهن، وأعطتهن عكازاتهن، ودفعتهن نحو الباب وأخرجتهن

واختفت معهن في الليل البهيم، دون أن توجه إلي كلمة ولا نظرة.

وأدركت أنني لا أستطيع حتى أن أرسل فارساً في صحبتهن، لأن الضجة التي يحدثها السيف كانت خليقة وحدها بأن تصيبهن بالجنون– وكان القسيس لا يزال ينظر إلى الجسد المسجى.

ثم التفت إلي وقال:

– آه! يا له من شيء فظيع!

المركيزدي فوميرول

كان روجيه دى تورنيفيل يتحدث وسط حلقة من أصدقائه وقد جلس على كرسيه كأنه يمتطى صهوة جواد. وكان يمسك بيده سيجاراً، ويأخذ منه نفساً ثم ينفث سحابة صغيرة من دخان.

.. كنا نجلس على المائدة عندما أحضر الخادم خطاباً. ففتحه أبي.. تعرفون أبي جيداً، فهو يزعم أنه يقوم مؤقتاً مقام الملك في فرنسا. أما أنا فكنت أسميه دون "كيخوته" لأنه حارب طاحونة الجمهورية الهوائية طيلة اثنتى عشرة سنة دون أن يعرف أن كان يحارب من أجل أسرة البربون أم من أجل أسرة أورليان. واليوم يمسك برمحه باسم آل أورليان وحدهم، فلم يعد هناك غيره. وفي كل الأحوال يعتقد أبي في نفسه أنه من الأشراف في فرنسا، وأبعدهم صيتا، وأكثرهم نفوذاً. ولما كان عضواً دائما بمجلس الشيوخ، فهو يعد الملوك المجاورين أصحاب عروش غير مضمونة.

أما أمي، فهي روح أبي، وروح الملكية، روح الدين، والذراع اليمنى لله في الأرض، وطامة كبرى على القوم الفاسقين.

احضروا إذن خطاباً بينما كنا على المائدة، وفتحه أبي، وقرأه؛ ثم نظر إلى أمي وقال لها: "إن أخاك مشرف على الموت!" وشحب وجه أمي. اذ لم يكن أحد يتحدث عن خالي قط في المنزل تقريباً. حتى أنني

لم أكن أعرفه اطلاقاً، وكنت أعلم من الأحاديث الشائعة فحسب، أنه عاش ولا يزال يعيش عيشة بوهيمية. وكان قد بدد ثروته على عدد لا يحصى من النساء، ولم يعد يحتفظ إلا بعشيقتين يعيش معهما في شقة صغيرة في شارع الشهداء.

كان شيخاً سابقاً من أعضاء المجلس الأعلى في فرنسا، وكان ضابطاً كبيراً في الفرسان، وهو على ما يقولون لا يؤمن برب أو بشيطان. ولما كان يشك في حقيقة الحياة الأخرى، فقد أساء استغلال هذه الحياة بشتى الطرق وأصبح مصدر عذاب لأمي:

فقالت: "أعطني هذا الخطاب يا بول!"

ولما انتهت من قراءته طلبته بدوري. وإليكم ما جاء به:

"سيدي الكونت، أعتقد أنه يجب على أن أخبركم أن صهركم المركيز دي فوميرول مشرف على الموت. فربما أردتم اتخاذ بعض الإجراءات. ولا تنسوا أنني اخبرتكم"

خادمتكم

ميلاني

وغمغم أبي يقول: يجب أن نتدبر الأمر.. وفي مثل مركزي لابد أن أسهر على اللحظات الأخيرة لأخيك.

واستطردت أمي: سأبعث في استدعاء القس بوافرون وأسأله

النصح. ثم، سأذهب لإحضار أخي مع القيس وروجيه. أما أنت يا بول فابق هنا. يجب ألا تعرض سمعتك لشيء. وإن امرأة لتستطيع أن تقوم بهذه الأمور ويجب أن تقوم بها. ولكن الأمر يختلف بالنسبة لرجل سياسي في مثل مركزك. فإن خصماً ما سيجد في ذلك فرصة سائحة، فيستغل ضدك أجدر أعمالك بالحمد والثناء.

فقال أبي: معك حق، تصرفي حسبما ترين يا صديقتي العزيزة! وبعد ربع ساعة، أتى القس إلى الدار. وعرض الموقف الذي حلل ونوقش وقلب على جميع الوجوه.

إذا مات المركيز دي فوميرول، وهو من أكبر الأسماء في فرنسا، دون أن يصلى عليه، فإن الضربة ستكون من غير شك شديدة على طبقة الأشراف بوجه عام، وعلى الكونت توزنفيل بنوع خاص. وسينتصر الاباحيون. وستتغنى الجرائد القذرة بالنصر ستة أشهر كاملة، وسيمرغ اسم أمي في الوحل وتنال من اسمها الصحف الاشتراكية، وسيلطخ اسم أبي. ولا يصح أبداً أن يحدث شيء من هذا القبيل.

إذن فقد أعلنت في الحال حرب دينية يقودها الأب بوافرون، وهو قسيس قصير القامة سمين لطيف، يتعطر عطراً غريباً، ويمثل حقاً راعى كنيسة كبيرة في حي من أحياء النبلاء وسراة القوم.

وجهزت عربة من ذوات العجلات الأربعة، وذهبنا ثلاثتنا، أمي والقسيس وأنا، لنكون مع خالي في لحظاته الأخيرة.

وتقرر أن نقابل، أول الأمر، مدام ميلاني صاحبة الخطاب، ولعلها بوابة خالي أو خادمته.

ونزلت لأستطلع الأمر أمام منزل ذي طبقات سبع، ودخلت في ممر مظلم حيث لقيت عناء كبيراً في أن أعثر على جحر البواب المظلم. وتطلع إلي هذا الرجل في ارتياب. وسألته: "مدام ميلاني! من فضلك!"

– لا أعرفها!

– ولكني تلقيت خطاباً منها.

– هذا ممكن ولكنني لا أعرفها. هل هي إحدى الغانيات تلك التي تسأل عنها؟

– كلا بل هي خادمة على الأرجح. فقد كتبت إلي تطلب عملاً

– خادمة؟.. خادمة؟ لعلها خادمة المركيز. اذهب وانظر الطابق الخامس على اليسار.

ولما كنت لا أبحث عن إحدى الغانيات، فقد أصبح الرجل أكثر تلطفاً معي، وجاء حتى الممر. كان رجلاً طويل القامة، نحيل الجسم، ابيضت سالفتاه، أشبه بقواس الكنيسة، وكان يبدى حركات مهيبة جليلة.

وصعدت راكضاً درجاً حلزونياً طويلاً قذراً لم أجرؤ على أن ألمس حاجزه.. وطرقت ثلاث طرقات على الباب الأيسر من الطابق الخامس.

وانفتح الباب في الحال.. ووجدت أمامي امرأة قذرة ضخمة الجثة،

تسد المدخل بذراعيها المفتوحتين المعتمدتين على حاملي الباب.

وهمهمت تقول: "ماذا تريد؟"

– هل أنت السيدة ميلاني؟

– نعم

– أنا الفيكونت دي تورنفيل.

– آه حسنا! تفضل بالدخول.

– لكن.. والدتي موجودة تحت مع القسيس.

– آه حسنا! اذهب واحضرهما. لكن احترس من البواب.

ونزلت ثم صعدت مع والدتي يتبعها القسيس. وبدا لي كأنني أسمع خطوات أخرى خلفنا.ولما أصبحنا داخل المطبخ، قدمت لنا ميلاني مقاعد، وجلسنا نحن الأربعة جميعاً نتدبر الأمر.

وسألت أمي: أهو مشرف على الهلاك؟

– آه! نعم يا سيدتي، لم يعد أمامه وقت طويل.

– ولكن هل يستطيع أن يستقبل القسيس؟

– أوه! لا أعتقد ذلك!

– هل أستطيع أن أراه؟

– نعم يا سيدتي.. لكن.. لكن.. هاتان الآنستان موجودتان بقربه.

– أي آنسات؟

– صديقتاه!

– آه!

وتدفق الدم في عروق أمي.أما القس بوافرون فقد غض الطرف.

وبدأ الأمر يسليني فقلت:

– لو دخلت أنا أولا! سأرى كيف يستقبلني، ولعلى أستطيع أن أعده نفسياً.

ولم تر أمي في كلامي أي نوع من الخبث، فأجابت:

– نعم يا بني!

لكن بابا فتح في جهة ما، وصاح صوت.. صوت امرأة:

– ميلاني!

واندفعت المرأة البدينة وأجابت:

– ماذا تريدين يا مدموازيل كلير؟

– العجة.. بسرعة!

– دقيقة واحدة يا مدموازيل.

وعادت إلينا وفسرت سبب هذا النداء.

– إنها عجة بالجبنة طلبوا إلي أن أعدها للساعة الثانية كأكلة خفيفة.

وكسرت البيض في الحال في صحن وراحن تخفقه بهمة. أما أنا فخرجت على السلم وقرعت الناقوس لأعلن عن حضوري رسمياً.وفتحت لي ميلاني، وأجلستني في البهو، وذهبت تخبر خالي بحضوري، ثم عادت ترجو مني أن أدخل.

واختبأ القس وراء الباب إلى أن يظهر عند أول إشارة.

ولقد فوجئت حقا عندما رأيت خالي.. فقد كان هذا المتهتك العجوز جميلاً وقوراً أنيقاً للغاية.

كان جالساً يكاد يرقد في مقعد كبير وقد لف ساقيه بغطاء، بينما يداه الطويلتان الشاحبتان تتدليان على ذراعي المقعد. وكان ينتظر الموت في عظمة نادرة. وكانت لحيته البيضاء تتدلى على صدره، وشعر رأسه، وهو شعر أبيض كذلك، يتصل بلحيته على الخدين.

وخلف مقعده الكبير كانت ثمة امرأتان صغيرتا السن، امرأتان سمينتان وقفتا حيث هما كأنما لتحمياه مني. وجعلتا ترمقاني بعيون الغانيات الجرئيات. كانت كل منهما تلبس مئزراً وثوباً منزلياً.. وقد تعرت أذرعتهما، وشعرهما أسود متهدل على الرقبة كيفما اتفق، وفي أقدامها

نعال من الطراز الشرقي موشاة بالذهب، تكشف عن الكعوب والجوارب الحريرية. كانتا حول هذا الرجل المحتضر، أشبه بصور الفاسقات في اللوحات الرمزية. وبين المقعد والفراش، كانت ثمة مائدة صغيرة عليها غطاء وصحفتان وكوبتان وشوكتان وسكينتان، تنتظر العجة بالبيض التي طلب إلى ميلاني أن تعدها منذ لحظات.

وقال خالي في صوت واهن لاهث.. لكنه واضح:

– عم صباحاً يا بني.. لقد مضى الوقت الذي كان يمكن أن تزورني فيه. إن تعارفنا لن يستمر طويلاً.

فتمتت أقول: "ليس الخطأ خطأي يا خالي.."

فأجاب: "لا.. أنا أعرف ذلك، أنه خطأ أبيك وأمك أكثر منه خطأك.. كيف حالهما؟"

– لا بأس.. أشكرك. عندما علما بأنك مريض بعثا بي لأسأل عن صحتك.

– أوه! ولماذا لم يحضرا هما؟

فرفعت عيني إلى المرأتين، وقلت متمهلاً: "ليس الخطأ خطأهما يا خال.. إذا كانا لا يستطيعان الحضور.. ولكنه يصعب على والدي، ويستحيل على أمي أن يدخلا إلى هنا.."

ولم يجب العجوز بشيء. لكنه رفع يده نحو يدي، فأمسكت بهذه اليد الشاحبة الباردة ونظرت إليها.

وفتح الباب، ودخلت ميلاني بالعجة ووضعتها على المائدة. وجلست المرأتان في الحال أمام صحفتيهما، وأخذتا تأكلان دون أن تحولا نظراتهما عني.

وقلت: "يا خال.. سيكون فرح أمي عظيما إذا قابلتك!"

وغمغم يقول: "وأنا أيضاً.. وددت لو....." وسكت ولم أجد ما اقترحه عليه، ولم أعد أسمع غير صوت الشوكتين على الصيني، وحركة الفمين اللذين يلوكان الطعام.

وكان القسيس ينصت إلينا من وراء الباب، فلما شاهد ارتباكنا حسب أن النصر قد تم؛ ورأى أن التدخل قد حان وقته، فدخل.

وذهل خالي عند ظهور القسيس ذهولاً شديداً بحيث ظل جامداً بلا حراك أول الأمر، وفتح فاه كما لو كان يريد أن يبتلع القسيس، ثم صاح في صوت قوي عميق ثائر:

– ماذا جئت تفعل هنا؟!

وكان القسيس معتاداً على مثل هذه المواقف العصيبة، فجعل يتقدم وهو يهمس:

– لقد أتيت باسم أختك يا سيدي المركيز. إنها هي التي بعثت بي. وستكون سعيدة يا سيدي المركيز..

غير أن المركيز لم يكن يصغى إليه، فرفع يدا وأشار إلى الباب

بحركة مؤثرة شامخة، وصاح محنقا مبهور الأنفاس.

- إليكم عني، إليكم عني، يا لصوص الأرواح، إليكم عني يا محطمي أبواب المحتضرين.

وجعل القسيس يتقهقر، وكنت أنا أتقهقر كذلك نحو الباب، هارباً مع رجل الكنيسة، ونهضت المرأتان القصيرتان، وقد انتقم لهما، نهضتا تاركتين عجتهما ولم يأكلا نصفها بعد، ووقفتا إلى جانبي مقعد خالي، ووضعتا أيديهما على ذراعيه لتهدئا من ثائرته، ولتدفعا عنه المؤامرات الاجرامية التي يحيكها حوله أفراد الأسرة.. ورجال الدين.

وانضممنا أنا والقسيس إلى أمي في المطبخ.. وقدمت لنا ميلاني المقاعد مرة ثانية وقالت أمي:

- كنت أعرف تماماً أن الأمور لن تجري في يسر، يجب أن نجد حيلة أخرى، وإلا أفلت منا.

وبدأنا نفكر في الأمر من جديد، ورأت أمي رأيا واقترح القسيس رأيا ثانيا، وأبديت أنا رأيا ثالثا.

كانت قد مضت علينا نصف ساعة، ونحن نناقش الأمر في صوت خفيض عندما نهضنا دفعة واحدة إثر ضجة شديدة، ضجة قطع أثاث تتحرك، وصيحات يرسلها عمي، كانت أكثر حدة وأشد هولاً من صيحاته الأولى.

وكنا نسمع من خلال الأبواب والحواجز الخفيفة: "أخرجا أيها الجلفان.. أخرجا .. أخرجا أيها المجرمان الحقيران، أخرجا.. أخرجا!"

وأسرعت ميلاني ثم عادت في الحال تطلب معونتي، فاندفعت. كان أمام خالي الذي أثاره السخط حتى كاد أن يقف وهو يصرخ، رجلان يبدو أنهما كانا ينتظران أن يموت من الغضب.

وعرفت الرجل الأول على التو، من سترته الطويلة المضحكة، ومن حذائيه الطويلين، ومظهره الذي يشبه مظهر مدرس خال من العمل، ومن ياقته المستقيمة ورباط رقبته الأبيض وشعره النائم ووجهه المتواضع، عرفت أنه قسيس بروتستانتي.

أما الثاني فكان بواب المنزل. وكان ينتمي إلى مذهب المصلحين الجديد. كان قد اقتفى أثرنا، وشاهد هزيمتنا، فأسرع يستدعى قسيسه مؤملاً أن يصيب نجاحاً فيما فشلنا نحن فيه.

وبدا خالي مجنونا من الغيظ. فإذا كنت رؤية قسيس كاثوليكي، قسيس أجداده، قد أثارت غضب المركيز دي فوميرول صاحب العقيدة الحرة، فإن منظر القسيس البروتستانتي جعله يفقد عقله تماماً.فأمسكت بالرجلين من ذراعيهما، وألقيت بهما في عنف إلى الخارج حتى أنهما اصطدما بشدة مرتين متتاليتين لدى خروجهما من البابين اللذين يؤديان إلى السلم.

ثم اختفيت بدوري، ودخلت في المطبخ، حيث مركز قيادتنا، لأستشير أمي والقسيس.

لكن ميلاني دخلت مذعورة وهي تئن:

– إنه يموت.. إنه يموت.. تعالوا بسرعة.. إنه يموت!

واندفعت أمي. وكان خالي قد سقط على الأرض، متمددا بطوله، وقد وقفت فيه كل حركة. واعتقدت أنه مات حقا.

وكانت أمي رائعة في هذه اللحظة. فتقدمت مباشرة نحو المرأتين الراكعتين قرب الجثة وكانتا تحاولان رفعها وقالت وهي تشير الى الباب، قالت في عظمة وجلال:

– عليكما بالخروج الآن!

فخرجتا دون أن تحتجا ودون أن تنبسا بكلمة. ويجب أن أضيف إلى ذلك، أنني كنت أتهيأ لطردهما بنفس العنف الذي طردت به القس والبواب.

وعندئذ أخذ القس بوافران يمنح خالي الأسرار الأخيرة وهو يتلو كل الصلوات المناسبة، وغفر له ذنبه.وأخذت أمي تنتحب جاثية قرب أخيها.

وفجأة صاحت:

– لقد تعرف علي، فقد شد على يدي. أنا واثقة من أنه تعرف علي! وأنه شكرني! أوه! يا الهي! وافرحتاه

مسكينة أمي!

وأرقدنا خالي على فراشه.

كان قد مات تماما هذه المرة.وقالت ميلاني:– ليس لدينا قماش نكفنه به، فالبياضات كلها ملك لهاتين الآنستين.

أما أنا فجعلت أنظر إلى العجة التي لم يتما أكلها، وكنت أحس برغبة شديدة في الضحك وفي البكاء في آن واحد. فثمة لحظات غريبة ومشاعر غريبة تمر بنا في الحياة أحياناً.

وشيعنا خالي بجنازة رائعة، انتهت بخمس خطب على القبر. وقد أثبت البارون دي كرواسيل عضو مجلس الشيوخ، ببيانه الرائع، أن الله يعود دائماً منتصراً إلى الأنفس الأصيلة التي ضلت السبيل حينا ما. وسار خلف النعش أعضاء الحزب الملكي الكاثوليكي جميعاً، يشملهم حماس المنتصرين، وهم يتحدثون عن هذه الميتة الجميلة، بعد حياة يشوبها شيء من الاضطراب.

وسكت الفيكونت روجيه. وجعل الجميع يضحكون حوله. وقال واحد منهم: "هذه قصة جميع حالات التسوية التي تصيب الأشراف ساعة الموت!".

قصة خادمة في مزرعة

تناول أهل المزرعة غذاءهم بأسرع مما اعتادوا، لأن الجو كان صحوا، ثم خرجوا إلى الحقول.

وبقيت روز الخادمة وحيدة في المطبخ الفسيح، حيث بقية من نار تخبو في الموقد تحت قدر ممتلئ بالماء الساخن، وكانت تغترف من هذا الماء بين الفينة والفينة، وتغسل الأوعية متمهلة، ثم تتوقف لتتأمل مربعين من النور كانت الشمس ترسلهما خلال النافذة، فيقعان على النضد الطويل، ويظهر بهما ما في زجاج النوافذ من عيوب.

وثمة ثلاث دجاجات جرئيات تنقب عن الفتات تحت المقاعد. ومن الباب الموارب تنفذ روائح آتية من عشة الدواجن، وحرارة الاصطبل المتخمرة. وفي هدأة الظهيرة المحرقة، راحت الديكة ترسل صياحها.

ولما فرغت الفتاة من عملها، ومسحت النضد، ونظفت المدخنة، وصفت الأطباق على الصوان العالي الموضوع في آخر المطبخ، قرب الساعة الخشبية الكبيرة، ذات الطقطقة الرنانة، استردت أنفاسها وقد ألم بها دوار خفيف، وضاف صدرها وهي لا تدري لذلك سببا، ونظرت إلى الجدران الصلصالية المسودة، وعوارض السقف المغطاة بالدخان، وقد تدلى منها نسيج العنكبوت والرنجة المملحة، وصفوف من البصل. ثم

جلست تضايقها الروائح العتيقة، وقد بعثتها حرارة هذا النهار من أرض الغرفة، التي طالما انسكب عليها كثير من الاشياء منذ أمد طويل. وكان يخالطها رائحة اللبن الحامض الذي ترك في حجرة مجاورة رطبة، ليخرج زبده. وأرادت أن تشغل نفسها بالحياكة كعادتها، ولكن قواها خانتها، فخرجت تستنشق الهواء على عتبة الباب.

وغمرها الضياء الباهر، فأحست بهدوء نفذ إلى قلبها وراحة سرت في بدنها.

وكان السماد أمام الباب لا يفتأ يشع بخاراً خفيفاً لامعاً. وكانت الدجاجات تتمرغ فوقه، وقد رقدت على جنبها، وتنبشه في هدوء بإحدى رجليها، بحثاً عن الديدان. وكان الديك يقف في وسطها مختالاً، ولا يفتأ يختار واحدة منها، يحوم حولها ويدعوها بنقيق خفيف. فتنهض الدجاجة غير مبالية، وتتلقاه بادية الهدوء، وقد ثنت من قائمتيها، ثم تحمله على جناحيها. ثم تنفض ريشها بعد ذاك، فيخرج منه الغبار، وتتمدد من جديد على السماد، بينما يأخذ هو في الصباح معددا انتصاراته. وكانت الديكة تجيبه في العشش الأخرى كما لو كانت تحديات العشاق تتبادل من مزرعة إلى أخرى.

وكانت الخادمة تتأملها وهي لا تفكر في شيء ثم رفعت عينيها، وبهرتها بهجة شجرات التفاح المزهرة الناصعة البياض وكأنها رءوس ذرت عليها بودرة بيضاء.

وفجأة مر أمامها مهر صغير يخب، وقد بلغ منه المرح كل مبلغ،

ودار مرتين حول الربا المزروعة بالأشجار. ثم وقف بغتة وأدار رأسه، وكأنه مندهش لوحدته.

وكانت هي الأخرى تستشعر رغبة في الجري، حاجة إلى الحركة، وتهفو في الوقت عينه إلى أن تتمدد وأن تفرد أطرافها وتستريح في الهواء الساكن الحار. وحطت بضع خطوات مترددة، مغمضة العينين وقد تملكها راحة حيوانية، ثم ذهبت على مهل تحضر البيض من عشة الدجاج. ووجدت هناك ثلاث عشرة بيضة، أخذتها وعادت بها. ولما أغلقت صوان الطعام دونها، ضايقتها روائح المطبخ من جديد، فخرجت لتجلس على العشب قليلاً.

وكان فناء المزرعة يبدو هاجماً وسط الأشجار المحيطة به، وزهور "البسينلي" الصفراء تلمع كحبات من ضياء وسط العشب الطويل اليانع الخضرة، خضرة الربيع الجديدة. وكانت ظلال أشجار التفاح تحيط بها على هيئة دوائر، ومن أسقف المنازل المغطاة بشجيرات السوسن ذات الأوراق المدببة كالسيوف، كان يتصاعد دخان خفيف، وكأن رطوبة الاصطبلات ومخازن الحبوب أخذت تتطاير من خلال القش.

ووصلت الخادمة إلى أسفل السقيفة حيث توضع العربات، وكان في جوف الربوة حفرة كبيرة خضراء ملئت بنفسجاً يفوح شذاه. وخلف الربوة تمتد الحقول، بطاحاً متسعة تنمو فيها المحاصيل وتتخللها باقات متناثرة من الأشجار، ومن هذا المكان العالي ترى جماعات من

الفلاحين.. هناك بعيداً، وهم يبدون كالدمى الصغيرة، وثمة جياد بيضاء تجر محاريث كأنها لعب أطفال، ويسير وراءها رجال تخالهم كالأصابع.

وذهبت الخادمة وأخذت حزمة قش من المخزن وألقت بها في هذه الحفرة لتجلس عليها؛ ثم لم ترتح في جلستها ففكت رباط الحزمة وسوت مجلسها وتمددت على ظهرها، وقد وضعت ذراعيها تحت رأسها ومدت ساقيها.

وأغمضت عينيها في هدوء، وقد غابت في تراخ لذيذ. وكادت تنام تماماً عندما أحست بيدين تمسكان بصدرها، فانتصبت واقفة في انتفاضة واحدة. إنه جاك صبي المزرعة، وهو فتى بيكاردى مديد القامة، رشيق القد. وكان يغازلها منذ فترة من الوقت. وفي ذلك اليوم كان يعمل في حظيرة الأغنام، ولما رآها تتمدد في الظل أقبل. متلصصاً حابساً أنفاسه، لامع العينين، وقد علق بعض القش بشعر رأسه.

وحاول تقبيلها ولكنها صفعته على وجهه، وكانت قوية مثله. فطلب إليها الصفح، مخادعاً. وعندئذ جلس كل منهما بجوار الآخر، وتحدثا حديث الأصدقاء وتحدثا عن الطقس الذي كان ملائماً للحصاد، وتحدثا عن السنة التي كانت تؤذن بالخير، وعن سيدهما الرجل الطيب، ثم عن الجيران وعن البلدة بأكملها، وعن نفسيها، وقريتهما، وشبابهما وذكرياتهما وأهليهما الذين تركاهم منذ أمد طويل، وربما إلى الأبد. ورق قلبها وهي تفكر في هذا كله، بينما أخذ هو يقترب منها، وقد سيطرت عليه فكرته الوحيدة الشاغلة وبدأ يحتك بها في رعشة، وقد استولت عليه الرغبة الجامحة،وكانت هي تقول:

– إنني لم أر أمي منذ وقت طويل، وإنه لشيء قاس أن يفترق الإنسان عن أمه كل هذا الوقت.

وكانت عينها الشاردة ترنوا بعيداً عبر الفضاء، ترنو إلى القرية المهجورة هناك.. الجاثمة هناك عند الشمال.

أما هو فقد أمسك بها من عنقها، وقبلها من جديد، ولكنها ضربته في وسط وجهه بقبضة يدها ضربة قوية، أنزفت أنفه دما. فنهض وراح يسند رأسه على جذع شجرة، فلان قلبها واقتربت منه سائلة:

– هل تشعر بألم؟

ولكنه أخذ يضحك.. "كلا.. لا شيء". مع أنها كانت قد ضربته في وسط وجهه تماماً، وغمغم يقول "يا لله!" وراح ينظر إليها في إعجاب، وقد تملكه احترام.. عاطفة من نوع آخر.. بداية حب حقيقي لهذه الشابة الطويلة القامة، القوية البنيان.

وعندما وقف الدم عن النزيف، اقترح عليها أن يقوما بجولة، فقد كان يخشى قبضة جارته القاسية، لو ظلا جالسين هكذا جنبا إلى جنب. غير أنها تناولت ذراعه بنفسها كما يفعل المخطوبين في الطريق كل مساء. وقالت له:

– ليس جميلاً منك يا جاك أن تحتقرني على هذا النحو!

واحتج... لا، إنه لا يحتقرها، ولكنه يحبها، هذا هو كل ما في الأمر. فقالت له:

– اذن فأنت تريد أن تتزوجني؟

فتردد قليلاً، ثم أخذ ينظر إليها من جنب، بينما كانت هي تنظر الى بعيد في سرور. وكانت وجنتاها محمرتين ممتلئتين، وصدرها عريضا ناهداً تحت صدرتها البسيطة وكانت شفتاها غليظتين ناضرتين، ونحرها العاري تقريباً تنديه نقط صغيرة من العرق. وأحس بالرغبة تتملكه، فوضع فمه على أذنها، وقال في همس:

– نعم أتمنى.

عند ذاك ألقت بذراعيها حول عنقه وعانقته طويلاً حتى انقطعت أنفاسها.

وبدأت بينهما منذ ذلك الحين قصة الحب الأزلية. كانا يتناوشان في مختلف الأركان، ويتواعدان على اللقاء في ضوء القمر وراء كومة من التين، وكانا يتراكلان من تحت المائدة، محدثين ساقيهما الكدمات، بأحذيتهما الضخمة ذات المسامير.

ثم أخذ جاك يملها شيئاً فشيئاً. فإذا به يتجنبها ولا يتحدث اليها إلا قليلا، ولا يسعى إلى لقائها منفردة. عندئذ استولت عليها الشكوك والأحزان. وبعد فترة من الوقت أحست بأنها تحمل جنينا في أحشائها، فأصابها الذعر أول الأمر، ثم تملكها غضب جامح، جعل يزداد يوماً بعد يوم، لأنها لم توفق إلى لقائه لفرط حرصه على تجنبها. وأخيراً، ذات ليلة وبينما أهل المزرعة جميعاً نائمون، خرجت دون ضجة، حافية القدمين، لا

تلبس غير مئزرها الداخلي، واخترقت الفناء ودفعت باب الاصطبل، حيث كان جاك يرقد داخل صندوق كبير ملئ بالقش في مكان عال فوق الخيول. وسمع خطاها مقبلة، فتظاهر بأنه يغط في النوم. لكنها صعدت بقربه، وجعلت تهزه جاثية على ركبتيها بجواره، حتى نهض قاعداً.

ولما جلس سألها: "ماذا تريدين؟" فقالت وهي تصر على أسنانها وترتعش من الغيظ:– "أريدك.. أن تتزوجني لأنك وعدتني بالزواج". فانشأ يضحك وهو يقول لها:– "آه حسنا، لو أن الإنسان تزوج كل الفتيات اللائى أخطأ معهن، لكان الأمر عصيباً للغاية"

ولكنها قبضت على حنجرته وقلبته دون أن يستطيع خلاصا من قبضتها الوحشية، وخنقته وصرخت فيه قريبا من وجهه:– "أنا حامل! أتسمع! أنا حامل!" وأخذ هو يلهث وقد انبهرت منه الأنفاس. وبقيا كذلك جامدين صامتين، وسط ذلك السكون الحالك الذي. لا يعكره سوى ضجة يحدثها فك حصان يستخلص التبن من المذود ثم يلوكه في فمه على مهل.

ولما أدرك جاك أنها اقوى منه غمغم يقول: "حسنا سأتزوجك ما دام الأمر كذلك!".

غير أنها لم تكن واثقة من وعوده فقالت له: "في الحال.. وسنعلن عن زواجنا".

وأجاب:– "في الحال"

- أقسم على ذلك بالله العظيم

وتردد بضع لحظات ثم حزم أمره وقال:

- أقسم بالله العظيم

عندئذ فكت أصابعها وانصرفت من غير أن تضيف كلمة واحدة.

وقضت بضعة أيام دون أن تستطيع محادثته، إذ كانت تجد الاصطبل مغلقا بالمفتاح كل ليلة، ولم تكن تجسر على أن تثير أية ضجة خوفاً من الفضيحة.

ثم رأت خادماً آخر، ذات صباح، يدخل ساعة تناول الحساء.

فسألت:

- هل رحل جاك؟

فقال الرجل الآخر:

- نعم.. وقد حللت مكانه!

وجعلت ترتعد بشدة بحيث لم تعد قادرة على أن تنزل قدرها عن النار، ولما ذهب الجميع إلى أعمالهم صعدت إلى غرفتها، وبكت وقد دفنت وجهها في وسادتها حتى لا يسمعها أحد.

وحاولت أثناء النهار أن تستقصي خبره من غير أن توقظ الريب والشكوك، لكن فكرة مصيبتها كانت متسلطة على ذهنها حتى كانت تظن

أنها تلمح ضحكات خبيثة على وجوه الذين تسألهم جميعاً... وعلى كل حال، لم تستطع أن تعرف شيئاً سوى أنه غادر البلدة كلية.

وحينئذ بدأت، بالقياس إليها، حياة دائمة العذاب، فكانت تعمل كالآلة دون أن تهتم بما تعمل، وقد تسلطت على رأسها فكرة واحدة: "ما العمل لو عرف الناس؟".

وشل هذا الهم المقيم فكرها، حتى أنها لم تعد تبحث عن الوسائل التي تجنبها الفضيحة التي كانت تحس بها مقبلة نحوها، مقتربة منها يوماً بعد يوم، لا محالة، كأنها قضاء الموت.

وراحت تستيقظ كل صباح قبل الآخرين بوقت طويل، وتحاول في مثابرة واصرار.. أن تتأمل منظر قامتها في قطعة صغيرة من مرآة مكسورة كانت تستخدمها في تمشيط شعرها. وكل همها أن تعرف أن أحداً لن يدرك حالها اليوم.

وكانت أثناء النهار تتوقف عن عملها في كل لحظة لتنظر في قامتها من أعلاها إلى أسفلها، وتطمئن إلى أن انتفاخ بطنها لم يكن يرفع ميدعتها أكثر من المعتاد.

ومرت شهور. وكفت عن الحديث أو كادت. وكلما طلب منها شيء لا تدرك المطلوب، فقد شملها ذعر، وتلدت نظرتها وارتعشت يداها، مما كان يجعل سيدها يقول لها:

– يا بنيتي المسكينة! ما أشد ما أصابك من غباء منذ بعض الوقت!

وفي الكنيسة، كانت تختفي وراء أحد الأعمدة، ولا تجسر أن تذهب للاعتراف، فإنها تخاف أشد الخوف مجابهة القسيس، الذي كانت تعتقد أن له مقدرة خارقة تتيح له أن يقرأ ما في السرائر.

وعلى المائدة، كانت نظرات زملائها تكاد أن تغشيها هما وكمداً. وكانت تتصور دائماً أن راعي البقر– وهو فني صغير خبيث، يكبر عقله سنه ولا يفتأ ينظر اليها بعينه اللامعة– قد اكتشف أمرها.

وذات صباح أعطاها ساعي البريد خطاباً، ولم تكن قد تسلمت قط خطاباً من قبل. فاعتراها اضطراب شديد حتى اضطرت إلى الجلوس. ربما كان الخطاب من عنده؟ ولكن لما كانت لا تعرف القراءة، فقد بقيت مهمومة مضطربة أمام هذه الورقة المغطاة بالحبر، فوضعتها في جيبها وهي لا تجرؤ على أن تفضي بسرها لأحد. وكثيراً ما كانت تتوقف عن عملها، لكي تنظر طويلاً في هذه الأسطر ذات الأبعاد المتساوية التي يختمها توقيع، وهي تظن ظناً مبهماً، أنها ستكشف فجأة معناها. وأخيراً جنت من نفاذ الصبر والقلق، فذهبت لمقابلة معلم المدرسة، فأجلسها وقرأ.

".. ابنتي العزيزة، أرسل إليك هذا الخطاب لكي أخبرك بأن صحتي منحطة للغاية، وأن جارنا الأستاذ دانتو، كتب هذا لك، ليطلب منك الحضور إذا كنت تستطيعين."

عن والدتك المحبة

سيزار دانتو

ولم تنبس بكلمة وانصرفت. غير أنها لم تكد تختلي بنفسها حتى تهالكت على جانب الطريق وقد تخاذلت ساقاها، وظلت هناك حتى الليل.ولما رجعت إلى البيت، حكت مصيبتها إلى صاحب المزرعة، فسمح لها بالذهاب وبالغياب حسبما تشاء، وعدا اياها بأن يكلف بعملها فتاة تعمل باليومية وأن يستخدمها ثانية عندما تعود.

وكانت أمها في النزع الأخير، وماتت يوم وصولها بالذات، وفي اليوم التالي، ولدت روز طفلا في الشهر السابع.. هيكلا صغيراً نظيفاً ضعيفاً، يبعث القشعريرة، وكان يبدو أنه لا يكف عن الألم لشدة ما كان يقبض يديه البائستين المعروقتين، وكأنهما أرجل سرطان.ومع ذلك فقد عاش.

وقالت للناس أنها متزوجة، ولكنها لا تستطيع أن تتكفل بالولد، فتركته لدى بعض الجيران، الذين وعدوها بالعناية بأمره.

وعادت إلى المزرعة.

ومنذ ذلك الحين انبعث في قلبها الجريح، كالفجر الجديد، حب مبهم نحو هذا المخلوق الهزيل الذي تركته هناك، وكان هذا الحب نفسه ألماً جديداً، يلازمها في كل ساعة وفي كل دقيقة، ما دامت بعيدة عن طفلها.

وكان ما يعذبها بخاصة هو حاجة شديدة إلى أن تقبله، وإلى أن تضمه بين ذراعيها، وأن تحس بحرارة جسمه الصغير على صدرها. ولم تعد تنام الليل، كانت تفكر فيه طيلة النهار، وفي المساء عندما تنتهي من عملها، كانت تجلس أمام النار وتثبت نظرها فيها، مثلها مثل أولئك الذين يفكرون في أمر بعيد.

وأخذت الأفواه تلوك سيرتها، وكانوا يتندرون بذكر العشيق الذي تحبه ولا شك، ويسألونها: أجميل هو، أم مديد القامة، أم كثير المال، ومتى سيعقد الزواج؟

وكثيراً ما كانت تتهرب منهم لتبكي وحيدة، لأن هذه الأسئلة كانت تنفذ في جلدها كالدبابيس.

وأقبلت على العمل في حمية، لكي تبعد عن نفسها هذه العذابات. وكانت دائمة التفكير في طفلها، لا تنفك تنشد من الوسائل ما يتيح لها أن تدخر له مالاً كثيراً. فصممت على أن تعمل بجد ونشاط، حتى يضطر سيدها إلى زيادة أجرها.

وعلى ذلك أخذت تستحوذ شيئاً فشيئاً على كل الأعمال، وجعلته يطرد خادمة أصبحت عديمة النفع، فهي تقوم بعمل اثنتين. واقتصدت في الخبز وفي الزيت وفي الشموع، وفي الحبوب التي كانت تلقى بسخاء للدجاج. واقتصدت في علف البهائم، الذي كان يبدد بعض التبديد، وأمسكت يدها على أموال سيدها، كما لو كان المال مالها. وبذلت جهدها في عقد الصفقات الرابحة، وبيع ما يخرج من البيت بأعلى ثمن، واحباط مخادعات الفلاحين الذين كانوا يعرضون منتجاتهم. ونيطت بها مسائل البيع والشراء، والإشراف على أعمال الخدم، وحساب المؤن، وسرعان ما أصبح وجودها لا مندوحة عنه. وكانت تفرض رقابة شديدة على كل ما حولها، فازدهرت المزرعة ازدهاراً عجيباً تحت إدارتها. وكان الناس يتحدثون، على

أميال من هذا المكان، عن خادمة السيد فالان، وكان صاحب المزرعة يردد في كل مكان:– "يا لها من فتاة! أنها أثمن من الذهب!"

ومع ذلك فقد مضت الأيام وأجرها كما هو. وكان سيدها يقبل عملها الشاق على أنه واجب كل خادمة مخلصة، ودليل إخلاصها. وبدأت تتحدث إلى نفسها، في شيء من المرارة، وتقول إن أرباح السيد زادت بفضلها خمسين أو مائة ليرة كل شهر، ومع ذلك فهي ما برحت تقبض فرنكاتها المائتين والأربعين كل سنة، لا تزيد ولا تنقص.

وقررت أن تطالب بزيادة في أجرها. وذهبت لمقابلة سيدها ثلاث مرات، ولكنها كلما مثلت أمامه، كانت تتحدث إليه في أمر آخر. فقد كانت تستشعر شيئاً من الخجل عند طلب النقود، كما لو كان ذلك أمراً مشيناً. وأخيراً، كان السيد بتناول طعامه وحده في المطبخ ذات يوم، فقالت له في شيء من الارتباك، إنها تريد أن تتحدث إليه حديثا خاصا. فرفع رأسه مندهشاً. وقد وضع يديه على المائدة، يمسك بإحداها سكيناً وسنها متجه إلى الفضاء، ويمسك بالثانية لقمة من خبز، وثبت عينيه في خادمته فاضطربت تحت وقع نظراته، وطلبت إجازة قدرها ثمانية أيام لتذهب إلى بلدتها لأنها كانت مريضة.

فمنحها الأيام الثمانية في الحال، ثم أضاف وقد ارتبك هو نفسه:

– وأنا أيضاً، عندي ما سأحدثك به عندما تعودين.

* * *

وكان الطفل قد أشرف على شهره الثامن فلم تتعرف عليه. فقد أصبح الآن وردي اللون ممتلئ الخدين، سميناً كأنه صرة من الشحم. وكانت أصابعه السمينة تتحرك في رضى ظاهر، فألقت بنفسها عليه كأنه فريسة، ألقت بنفسها في حماس حيواني، وقبلته في عنف حتى أنه أخذ يصرخ خوفاً. وحينئذ راحت تبكي، لأنه لا يتعرف عليها ولأنه يمد ذراعيه نحو مرضعته، كلما وقع نظره عليها.

ولكنه منذ اليوم التالي أخذ يألف وجهها ويضحك لمرآها، فكانت تحمله وسط الحقول وتركض هائمة وهو على يديها، ثم تجلس في الظل، ولأول مرة في حياتها فتحت قلبها. وعلى الرغم من أن وليدها لم يكن يفهمها، فقد أخذت تحدثه عن آلامها وأعمالها وهمومها وكانت لا تفتأ تتبعه من كثرة ملاطفاتها ومداعباتها.

وكانت تستشعر سعادة لا حد لها وهي تقلبه بين يديها وتنظفه، وتلبسه ثيابه، وكانت سعيدة كذلك وهي تغسل أوساخه، كما لو كان في هذه العنايات به ما يؤكد أمومتها. وكانت تتأمله دهشة دائماً من أنها رزقتهن ولا تفتأ تردد بينها وبين نفسها في صوت خفيض وهي ترقصه بيد ذراعيها: "انه ولدي الصغير، انه ولدي الصغير!"

وانتحبت طول الطريق أثناء عودتها إلى المزرعة. ولم تكد تصل حتى استدعاها سيدها إلى غرفته فذهبت إليه، وقد غلبتها الدهشة والتأثر، دون أن تدري سبباً، فقال لها:

– اجلسي هنا.

فجلست وظلا بضع لحظات قريبين، كلاهما حائر، وقد سكنت أذرعتهما، لا ينظر أحدهما إلى الآخر على عادة الفلاحين.

وكان صاحب المزرعة رجلاً بدينا في الخامسة والأربعين، مرحاً عنيداً، ترمل مرتين، وكان يحس بارتباك ظاهر لم يألفه، وأخيراً حزم امره، وشرع يتكلم بطريقة مبهمة، كان يتلعثم قليلاً، وينظر إلى بعيد وسط الحقول... وقال لها:

– روز.. ألم تفكري في الزواج قط؟

فغدت شاحبة كالميتة. ولما رآها لا تجيبه استطرد يقول:

– إنك فتاة طيبة ومنظمة ونشطة ومقتصدة. وامرأة مثلك ستكون ثروة لمن يتزوجها.

ولكنها ظلت على جمودها مشدوهة النظرة، ولم تحاول أن تفهم لشدة اضطراب أفكارها. كانت كأنها تقترب من خطر محيق. فتريث لحظة ثم واصل حديثه:

– أترين؟ إن مزرعة بغير سيدة لا يمكن أن تسير على ما يرام، حتى مع خادمة مثلك.

وسكت عند ذلك الحد، لأنه لم يعد يدري ما يقول. وكانت روز تنظر إليه في هلع من يجد نفسه أمام قاتل، ويتأهب للهرب لأول حركة

تبدو منه.. وأخيراً بعد خمس دقائق سألها:

– حسنا! هل يناسبك هذا؟

وأجابت بوجه مكتئب:

– ما الذي يناسبني يا سيدي؟

فأجاب فجأة:

– أن تتزوجيني بحق الله!

فانتصبت واقفة فجأة، ثم سقطت ثانية كسيرة على المقعد حيث ظلت بلا حراك كشخص أصابته صدمة كارثة عظيمة. وعيل في النهاية صبر المزارع فقال:

– هيا هيا، ما الذي تريدينه إذن؟

وكانت تتأمله في ذعر شديد ثم امتلأت عيناها بالدموع وردت مرتين بصوت مبحوح:

– لا أستطيع! لا أستطيع!

وسألها الرجل:

– ولم ذاك! هيا، لا تكوني غبية، سأترك لك فرصة للتفكير حتى الغد.

وأسرع بالانصراف، وقد سرى عنه كثيراً، لأنه قد فرغ من هذه المهمة، التي كانت تضايقه جدا. وهو لا يشك في أن خادمته ستقبل في

الغد عرضاً كان يعتبر بالنسبة إليها شيئاً لا أمل فيه. وهو بالقياس إليه صفقة طيبة، ما دام سيرتبط على هذا النحو إلى الأبد، بامرأة سيكسب من ورائها ما يفوق كثيراً أكبر بائنة في البلدة.

ولن يكون هناك أحاديث تتردد عن زواج غير متكافئ بينهما، فالجميع متكافئون تقريباً في الريف. وصاحب الأرض يحرث الأرض كخادمه الذي يصبح في الغالب سيدا بدوره في يوم من الأيام. وتتحول الخادمات إلى سيدات دائماً دون أن يحدث هذا التحول، أي تغيير في حياتهن وعاداتهن.

ولم تتم روز في تلك الليلة، فسقطت متهالكة على سريرها، ولم تعد بها قوة على البكاء لشدة تعبها. وظلت جامدة، لا تحس بجسمها، مشتتة الفكر، وكأنها مزقت أرباً أرباً بإحدى تلك الأدوات التي يستعملها المنجدون في ندف صوف الحشايا.وكانت تفلح في أن تجمع نتفا من الأفكار للحظات فحسب، ثم ترتعب لمجرد التفكير فيما يمكن أن يحدث.

واشتدت مخاوفها. وكلما كانت ساعة المطبخ الكبيرة تدق ببطء معلنة الساعات وسط سكون البيت الغافي. كان عرق الغم يتصبب منها. وأخذت تفقد صوابها، وتوالت عليها الكوابيس، وانطفأت شمعتها. وعندئذ بدأ الهذيان، ذلك الهذيان الشارد الذي يتسلط على أهل الريف فيزعمون أن لعنة القدر أصابتهم، وأحست بحاجة إلى الرحيل، إلى الهرب والفرار من كارثة فادحة، كالمركب حين تواجه العاصفة الهوجاء.

وتعبت يومها فارتعدت فرائصها، وانتفضت واقفة ومرت بيديها على وجهها وفي شعرها، وتحسست جسمها كمجنونة ثم نزلت وجعلت تسير كمن يسيرون أثناء النوم. ولما بلغت الفناء زحفت حتى لا يراها أحد من الجواسيس الأقذار. وكان القمر وقد أوشك على المغيب، يرسل ومضات قوية على الحقول، وبدلاً من أن تفتح الباب، صعدت على منحدر السقف. ثم لما وجدت نفسها أمام الحقول، اندفعت تركض، تركض في خط مستقيم، وتجري جريانا شديداً، وترسل بين الحين والحين صيحة حادة في غير ما وعى منها. وكان ظلها المفرط في الطول الممتد إلى جانبها على الأرض، يركض معها كذلك، ويظهر أحياناً طائر من طيور الليل فيحوم فوق رأسها. وكانت الكلاب في أفنية المزارع تنبح وهي تسمعها تمر، وقفز أحدها فوق الخندق ولحق ليعضها، ولكنها تحولت نحوه وهي تصرخ بشدة، حتى أن الحيوان المذعور هرب وربض في عشه وسكت.

وكانت أسرة من صغار الأرانب تمرح، فعندما اقتربت العداءة المحنقة، وكأنها الآلهة ديانا أصابها الجنون، فرت الحيوانات المذعورة، واختفت الأم وصغارها في أخدود ما، بينما هرب الأب بأقصى سرعة، وكان يبدو أحياناً، وقد وقفت أذناه الطويلتان فيلقى بظله المتوثب على القمر المشرف على المغيب الذي أخذ يغوص ويختفي في أقصى الدنيا مضيئاً البطاح بأشعته المائلة، كأنه مصباح ضخم، وضع على الأرض عند الأفق.

وانمحت النجوم في أعماق السماء، وأخذت بعض العصافير

تصدح، وبدأ النهار يطلع، وكانت الفتاة تلهث وقد أنهكها التعب، فلما بزغت الشمس، واخترقت الفجر القرمزي، وقفت عن السير.

وكانت قدماها المتورمتان ترفضان السير، لكنها لمحت مستنقعاً، مستنقعاً متسعاً، بدت مياهه الراكدة كالدماء تحت النهار الجديد، فمشت بخطى وئيدة وهي تعرج ويدها على قلبها، وراحت تغمس ساقيها في المياه.

وجلست على حزمة من العشب، وخلصت حذاءها الغليظ الممتلئ غباراً، وفكت جواربها وغمست ساقيها الزرقاوين في الماء الساكن، وكانت فقاقيع الماء تبدو هنا وهناك.

وتصاعدت فيها رطوبة عذبة من أخمص قدمها إلى قمة رأسها، وبينما هي تنظر فجأة بعين ثابتة إلى هذا المستنقع العميق، تسلط عليها دوار، وتملكتها رغبة شديدة في أن تغرق نفسها. ستكون نهاية آلامها فيه وإلى الأبد. ولم تعد تفكر في ولدها. كانت تريد سلاماً وراحة أبدية ونوماً لا نهاية له. وعندئذ انتصبت واقفة وخطت خطوتين إلى الأمام وقد رفعت ذراعيها. وكان الماء يغطي فخذيها الآن، وأوشكت أن تلقى بنفسها عندما أحست بلذعات قارسة في كعبيها جعلتها تقفز إلى الوراء. وأطلقت صرخة يائسة لأن علقات سوداء، كانت تمتص حياتها من ركبتيها إلى قدميها، وجعلت تنتفخ وهي لاصقة بلحمها. ولم تجرؤ على لمسها، وكانت تصيح من الرعب. وجذبت صيحاتها اليائسة فلاحاً كان يمر بعربته من بعيد. فانتزع العلقات واحدة واحدة، وربط الجروح بالأعشاب، وحمل الفتاة في عربته وأعادها إلى سيدها.

ولزمت فراشها خمسة عشر يوماً، وبينما كانت تجلس أمام الباب في اليوم الذي أبلت فيه من مرضها، أقبل المزارع فجأة، ووقف أمامها وقال:

– حسنا إنه أمر مفروغ منه، أليس كذلك؟

ولم تجب أول الأمر، فظل واقفاً يخترقها بنظراته العنيدة، فقالت في مشقة:

– لا يا سيدي لا أستطيع.

واستولى عليه الغضب فجأة وقال:

– لا تستطيعين أيتها الفتاة.. لا تستطيعين ولماذا؟

فعادت إلى البكاء وكررت:

– لا أستطيع

وأخذ ينظر إليها مليا، ثم صاح في وجهها:

– إذن فلك عشيق؟

فتمتمت تقول وهي ترتعش من الخجل:

– ربما كان هذا هو السبب

وكان الرجل أحمر كزهر الخشخاش فدمدم غاضباً:

– آه! إذن فأنت تعترفين بذلك أيتها الشقية! ومن هو هذا الحبيب؟ رجل حاف، خاوي الوفاض، لا مأوى له، يموت جوعاً! ... من هو.. قولي؟

ولما لم تجب بشي قال:

– آه لا تريدين.. سأذكر لك اسمه أنا، أنه جان بودي

فصاحت:

– أوه! كلا ليس هو..

– إذن فهو بيير مارتان

– كلا يا سيدي.

وأخذ يذكر مضطرباً أسماء فتيان البلدة جميعاً، بينما كانت تنكرهم واحداً واحداً وهي تمسح عينيها في كل لحظة بطرف ميدعتها الزرقاء. ولكنه ظل يبحث في إصرار، وينبش هذا القلب ليعرف سره، وكأنه كلب من كلاب الصيد ينقب في جحر نهارا بأكمله ليفوز بالحيوان الذي شم رائحته، وصاح الرجل فجأة:

– ايه! الحمد لله! إنه جاك خادم العام الماضي. كانوا يقولون أنه يتحدث إليك وأنكما تواعدتما على الزواج.

وأفحمت روز، وصبغ وجهها سيل من الدماء بلون قرمزي أحمر، وانقطعت دموعها فجأة، وجفت كما تجف نقط الماء على حديدة ملتهبة وصاحت:

– كلا، ليس هو.. ليس هو.

فسأل الفلاح الماكر الذي اشتم بداية الحقيقة:

– أمتأكدة أنت؟

فأجابت:

– أقسم لك! أقسم لك!

وكانت تبحث عن شيء تقسم عليه.. إذ لم تجرؤ على أن تقسم بالمقدسات فقاطعها قائلاً:

– كان يلاحقك في كل مكان وفي كل ركن، ويلتهمك بعينيه أثناء الأكل، فهل عاهدته على الوفاء؟ هيه؟ قولي!

وفي هذه المرة نظرت إلى سيدها في وجهه وقالت:

– لا أبداً، أبدا وأقسم لك بالله العظيم أنه لو جاء اليوم يطلب يدي لما قبلته.

وكانت تبدو مخلصة فيما تقول، حتى أن الرجل بدا مترددا واستطرد يقول وكأنه يتحدث إلى نفسه:

– إذن ماذا؟ على كل حال، لم تحل بك كارثة، وإلا عرف الناس ذلك.

ولما لم تكن ثمة عواقب لهذا الأمر. فإن خادمة لا ترفض الزواج من سيدها لهذا السبب، لابد أن هناك سبباً ما.

ولم تعد تجيب بشيء، فقد عقد الغم لسانها.

وأعاد سؤاله مرة أخرى:– "ألا تريدين؟!" فقالت وهي تتنهد: "لا أستطيع يا سيدي!". فدار على أعقابه.

وحسبت أنها قد تخلصت منه، وقضت بقية يومها هادئة أو تكاد، ولكنها كانت منهوكة القوى كما لو كانوا قد جعلوها، منذ الفجر، تدير آلة درس القمح بدلاً من الحصان الأبيض العجوز. وذهب إلى فراشها حالما استطاعت ذلك. ونامت في الحال.

وحول منتصف الليل، أيقظتها يدان تتحسسان الفراش، وهبت ترتجف من الذعر، لكنها تعرفت في الحال على صوت المزارع الذي كان يقول لها:

– لا تخافي يا روز، هذا أنا! قد أتيت لأتحدث إليك.

فدهشت أول الأمر، ولكنها عرفت ماذا يبغي، إذ جعل يحاول أن يدس بنفسه تحت الملاءات. وأصابتها رعدة شديدة، فقد أحست بنفسها وحيدة في الظلام، لا يزال النعاس يثقل أجفانها. ولكنها قاومت بلا مبالاة، فقد كانت تكافح في الوقت عينه غريزتها، تلك الغريزة التي لا يقدر هؤلاء البسطاء من الناس أن يتغلبوا عليها، لخور عزيمتهم.

وكانت تحول رأسها تارة نحو الحائط، وتارة نحو الحجرة لتتجنب القبلات التي كان فم سيدها يلاحق بها فمها. وكان جسمها يتلوى قليلاً

تحت الغطاء وقد أوهنه جهد الصراع، أما هو فقد انقلب وحشاً فشعرت عندئذ أنها لم تعد تقوى على المقاومة، وأخفت وجهها بين يديها بدافع من حياء يحاكي حياء النعامة، ثم كفت عن الدفاع عن نفسها.

وظل المزارع بجوارها طيلة الليلة، وعاد إليها في الليلة التالية، ثم كل ليلة.

وعاشا معاً عيشة الأزواج.

وقال لها ذات صباح: "لقد نشرت إعلان الزواج، وسنتزوج رسمياً في الشهر القادم".

فلم تجب. وماذا كانت تستطيع أن تقول؟ ولم تقاوم. وماذا كانت تستطيع أن تفعل؟

* * *

وتزوجته، وأحست بنفسها في قاع هوة عميقة لا تستطيع منها مخرجا، وشعرت بالمصاعب كلها معلقة فوق رأسها، وكأنها صخور ضخمة ستسقط عليها في الفرصة الأولى. كانت تحس كأنها سرقت هذا الزوج، وأنه سيكتشف الأمر ذات يوم، ثم أنها كانت تفكر في طفلها، مصدر بؤسها جميعه وسبب نعيمها أيضاً.

وكانت تذهب لرؤيته مرتين في السنة، وتعود في كل مرة أشد حزنا.لكن مخاوفها هدأت مع العادة، وسكن قلبها، وصارت عيشتها

أكثر اطمئناناً وأن كان ثمة خوف مبهم مازال يطفو على صفحة نفسها.

ومضت سنون وأشرف طفلها على السادسة، وكانت تقترب من السعادة عندما تعكر مزاج المزارع فجأة.

كان منذ سنتين أو ثلاث يبدو وكأن قلقاً يساوره، وكأن هما قد أخذ يكبر في نفسه مع الأيام. وكان يظل طويلاً حول المائدة بعد العشاء، وقد دفن رأسه بين يديه، حزيناً، حزينا تأكل قلبه الهموم. وأصبح كلامه أكثر حدة بل وفظاظة في بعض الأحيان. وكان يبدو أنه يضمر أفكاراً سيئة ضد زوجه، فقد كان يجبيها في بعض الأحيان في حدة أو في غضب.

وذات يوم جاء ابن احدى الجارات يشتري بيضا، وبينما هي تعنفه هوناً ما، إذ كان عملها يتعجلها، ظهر زوجها فجأة وقال لها في صوته العنيف:

– لو أنه كان ابنك لما عاملته هذه المعاملة.

وظلت مأخوذة، لا تحير جواباً، ثم دخلت إلى البيت، وقد استيقظت كل مواجع الغم فيها.

ولم يتحدث إليها صاحب المزرعة أثناء العشاء، ولم ينظر إليها، وكان يبدو كارها لها محتقراً إياها. لابد أنه قد نمى إليه شيء عنها.

وفقدت صوابها، ولم تجرؤ على البقاء وحيدة معه بعد العشاء، فانسلت وجرت نحو الكنيسة.

وكان الليل قد أقبلن وصحن الكنيسة معتماً تماماً، ولكن ثمة خطى

تتجول في ذلك السكون، قرب مكان المرتلين، كان الشماس يوقد مصباح بيت الغربان. وبدت نقطة النور هذه المرتعشة الغارقة في ظلمات القبة، بدت لروز كأمل أخير. وسقطت جائية على ركبتيها وعيناها مثبتتان عليها.

وصعد المصباح الضئيل في الفضاءن وصحبه صوت سلسلة، ثم دوى على الأرض وقع قبقاب منتظم يتبعه حفيف حبل رتيب. وأرسل الجرس الهزيل صلاة التبشير للمساء خلال الضباب المتكاثر.

ولما تأهب الرجل للخروج لحقت به روز وقالت:

– هل السيد القسيس في بيته؟

فأجاب:

– أعتقد ذلك فإنه يتناول عشاءه دائماً ساعة صلاة التبشير.

عندئذ دفعت باب القسيس وهي ترتعش.

وكان القسيس يجلس إلى المائدة، فأجلسها في الحال.

– نعم نعم، أنا أعرف، سبق أن حدثني زوجك بما أتى بك إلى هنا.

وخارت قوى المرأة المسكينة واستطرد القسيس يقول:

– ماذا تريدين يا بنيتي؟

وكان يبتلع بسرعة بعض ملاعق الحساء، وكانت قطراته تتساقط على ثوبه القذر المرتفع عند بطنه.

ولم تعد روز تجرؤ على الكلام ولا التوسل ولا الرجاء، فنهضت وقال لها القسيس:

– تشجعي

وخرجت.. وعادت إلى المزرعة وهي لا تدري ما هي فاعلة. كان السيد ينتظرها، وكان العمال قد غادروا المزرعة أثناء غيبتها. وسقطت متثاقلة عند قدمه وناحت وهي تذرف سيلاً من الدموع وقالت:

– ماذا يحنقك علي؟

فأخذ يصرخ:

– ليس لي أطفال! إن الإنسان لا يتزوج من امرأة لكي يظلا وحيدين إلى النهاية. هذا هو ما يحنقني. إذا لم تنجب البقرة عجولاً، فمعنى هذا أنها لا تساوي شيئاً. وإذا لم تنجب المرأة أطفالاً، فهذا يعني أنها لا تساوي شيئاً كذلك.

وكانت تبكي وهي تتمتم وتكرر:

– إنها ليست غلطتي، إنها ليست غلطتي.

عندئذ هدأ قليلاً وأضاف:

– لم أقل ذلك. ولكنه أمر مكدر على كل حال.

* * *

ولم يكن يشغلها منذ ذلك اليوم إلا فكرة واحدة، هي أن يكون لها ولد، ولد آخر. وأسرت برغبتها غلى كل الناس.ودلتها جارة على جيرانها على وسيلة ما، وهي أن تسقى زوجها، كل مساء، كوبة ماء بها بعض الرماد، وقبل المزارع، لكن الوسيلة لم تفلح.

وقالت لنفسها: "ربما كانت هناك أسرار ما؟" وأخذا يستعلمان فدلهما الناس على أحد الرعاة، وكان يسكن على بعد عشرة فراسخ من مزرعتهما. وجهز السيد فالان عربته الصغيرة، وذهب يستشيره ذات يوم.

وأعطاه الراعي رغيفاً من الخبز رسم عليه بعض إشارات، رغيفاً عجن من بعض الأعشاب، وكان على كل منهما أن يأكل منه لقمة قبل النوم وبعده.وأكلا الرغيف كله، ولم يحصلا على أية نتيجة.

وكشف لهما أحد المعلمين عن بعض الأسرار، وبعض الطرق التي لا يعرفها أهل الريف، مضمونة النتائج على حد قوله، ولم تفلح أيضاً هذه الوسائل.

وأشار القسيس بزيارة دير سان دي فيكامب. وذهبت روز مع الجموع، وركعت في الدير وامتزج رجاؤها بالدعوات الساذجة المتصاعدة من قلوب الفلاحين جميعاً، وتوسلت إلى الله العلي القدير، الذي كان الجميع يتوجهون إليه بالسؤال؛ توسلت إليه أن تنجب مرة ثانية. ولكن دون جدوى. عندئذ تصورت أن الله يعاقبها على خطيئتها الأولى، واستولى على فؤادها ألم مرير.

وأخذ الحزن يوهن منها شيئاً فشيئاً، وأخذ زوجها في الهرم كذلك،

كان على حد قولهم: "يحرق دمه، وتفنيه الأماني التي لا أمل في تحقيقها.

وعندئذ نشبت الحرب بينهما، فسبها وضربها، وكان يتشاجر معها طيلة النهار، وفي المساء، وعلى الفراش، كان يقذف في وجهها– وهو لاهث حانق– بالشتائم والكلام البذيء.

وذات ليلة، ولم يعد يدري ماذا يبتدع ليزيد من عذابها، أمرها بأن تنهض وتذهب فتنتظر تحت المطر حتى الصباح أمام الباب. ولما لم تطعه، أمسك بها من رقبتها، وأخذ يلكمها في وجهها بقبضة يده، ولم تقل شيئاً ولم تتحرك. وضاق ذرعا، فقفز بركبتيه على بطنها. وراح يكيل لها الضربات وقد عض على نواجذه وجن من الغضب. وعندئذ تملكتها ثورة يائسة، وألقت به على الحائط في حركة عنيفة، وانتصبت جالسة ثم قالت في صوت متغير:

– عندي طفل، أنا، عندي طفل! لقد أنجبته من جاك، إنك تعرفه جيداً! جاك. كان سيتزوجني، لكنه رحل.

وظل الرجل مشدوها، حائراً مثلها وكان يدمدم:

– ماذا تقولين؟ ماذا تقولين؟

عندئذ أخذت تنتحب، وتمتمت تقول من خلال عبراتها المنهمرة:

– لهذا السبب لم أكن أريد الزواج منك، لهذا السبب. ولم أكن أستطيع أن أخبرك بذلك. وإلا لطردتني وتركتني أجوع مع ولدي. ليس لك ولد أنت..أنك لا تعرف: لا تعرف.

وأخذ يردد بطريقة آلية وفي دهش متزايد:

– عندك ولد؟ عندك ولد؟

وقالت وسط الشهقات:

– لقد أخذتني رغما عني، ربما كنت تعرف ذلك؟ أما أنا فلم أكن أريد الزواج منك.

عندئذ نهض، وأشعل الشمعة، وأخذ يمشي في الحجرة ويداه خلف ظهره. وكانت هي لا تزال تبكي منهارة على السرير، وتوقف أمامها فجأة وقال:

– فالعيب مني أنا، إذا كنت لم تنجبي!

ولم تجب، وعاد هو إلى المشي، ثم توقف ثانية وسألها:

– وما عمر صغيرك؟

فهمست:

– إنه مشرف على السادسة

وسألها أيضاً:

– ولماذا لم تخبريني بذلك؟

فقالت في أنين:

– وهل كنت أستطيع؟

وظل واقفاً لا يتحرك ثم قال:

– هيا انهضي

ونهضت في مشقة، ثم لما انتصبت على قدميها متكأة على الحائط، شرع يضحك ضحكاته الغليظة التي كانت تعتريه أيام اعتدال مزاجه. وبقيت هي على اضطرابها فأضاف:

– حسنا! سنذهب لإحضار هذا الصغير، مادمنا لم تنجب طفلاً من زواجنا.

وتملكها رعب شديد كان خليقاً أن يجعلها تلوذ بالفرار لو لم تحنها قواها. ولكن المزارع كان يفرك يديه ويقول مغمغما:

– كنت أريد أن أتبنى طفلا، وهاأنذا قد عثرت عليه، هاأنذا قد عثرت عليه، لقد طلبت من القسيس أن يأتيني بيتيم. ثم قبلها وهو لا يزال يضحكن قبل زوجته المنتحبة المتبلدة على خديهما، وصاح وكأنها لا تسمعه:

– هيا أيتها الأم، هيا بنا لنرى إن كان قد بقى شيء من الحساء، سألتهم منه قدراً بأكملها.

فارتدت مئزرها، ونزلاً، وبينما ركعت هي على ركبتيها توقد النار تحت القدر كان هو مشرق الوجه، وما زال يسير بخطى واسعة في المطبخ وهو يكرر:

– حسنا، إنه ليبعث في نفسي السرور حقا. أنا لا أقول ذلك مجاملاً، ولكنني مسرور، مسرور جداً

مشكلة عائلية

كان ترام نويي قد تجاوز محطة باب مايوه، وأخذ يجري في الشارع الواسع الذي ينتهي إلى نهر الصين. وكانت الآلة الصغيرة– وقد قطرت بها عربتها– تطلق صفارتها لتفسح الطريق، وتنفث بخارها وتلهث كإنسان يركض مبهور الأنفاس، بينما راحت مكابسها تحدث ضجيجاً سريعاً، كأنها سيقان حديدية في حركة دائمة. وكان الحر المزهق للأنفاس في تلك الأمسية من أمسيات الصيف يرزح على الطريق، وعلى الرغم من أنه لم تكن ثمة نسمة تهب، فقد تصاعد منها غبار أبيض كالطباشير، غبار كثيف خانق حار، يلتصق بالجلد المندي بالعرق، ويملأ العينين وينفذ إلى الرئتين. وخرج الناس أمام أبواب بيوتهم التماسا للهواء.

وكان زجاج النوافذ في العربة مفتوحاً، فاهتزت الستائر لجريان الترام الذي لم يكن بداخله سوى عدد قليل من السيدات والرجال،لأن الناس يؤثرون في الأيام الحارة أن يقفوا في المقدمة أو على السلم، أما السيدات فكن بدينات قد تزين زينة مضحكة؛ إنهن من بورجوازيات الضواحى اللائي يستعضن عن الأناقة التي تعوزهن بوقار في غير موضعه، فأما الرجال فكانوا ممن سئموا العمل في دواوينهم، وذبلت وجوههم وتشوهت قامتهم، وارتفع أحد الكتفين عن الآخر لانكبابهم الطويل على المكاتب. وكانت وجوههم القلقة الحزينة تفصح عن مشاغلهم العائلية،

وحاجتهم التي لا تنقطع إلى النقود، وآمالهم القديمة التي خابت إلى الأبد، لأنهم كانوا ينتمون جميعاً إلى هذا الجيش من المساكين ذوي الثياب البالية، الذين يعيشون في ضيق شديد في بيت متواضع، لا تعدو حديقته شريطاً من الزرع، وسط هذا الريف القذر الذي يمتد حول باريس.

وكان ثمة رجل يقف قرب الباب، رجل قصير القامة، بدين، منتفخ الوجه، تتدلى بطنه بين ساقيه المنفرجتين، يرتدي حلة سوداء ويعلق على صدره وساماً. وكان يتحدث مع رجل طويل القامة نحيف، زرى الهيئة، عليه ثياب من الكتان الأبيض الشديد القذارة، وعلى رأسه قبعة قديمة من قش بنما. وكان الرجل الأول يتكلم في بطء وتردد كثير، حتى لنحسبنه ألكن أحياناً. إنه السيد كارافان، الكاتب الأول في وزارة البحرية، أما الرجل الآخر فقد كان فيما مضى ضابطاً صحياً[٢] على إحدى المراكب التجارية، وانتهى به الأمر بالاستقرار في ميدان كوربفوا. وكان يطبق على سكان هذه المنطقة البائسين ما بقي في رأسه من معلومات طبية حقيرة، بعد حياة حافلة بالمغامرات، وكان يسمى شينيه ويطلق على نفسه لقب "دكتور"، وقد راجت إشاعات كثيرة عن سوء سيرته.

وقد عاش السيد كارافان عيشة الكتبة الرتيبة، فهو يذهب منذ ثلاثين عاماً إلى مكتبه كل صباح، متخذا نفس الطريق، فيلقى نفس الوجوه في الساعة عينها، وفي الأماكن ذاتها. وكان يعود كل مساء من

---

[٢] يطلق هذا اللقب على كل من يمارس مهنة الطب دون أن يحصل على درجة طبيب.

الطريق نفسه، حيث يلتقي ثانية، بنفس الأشخاص، أولئك الذين شاخوا تحت ناظريه.

وكان يشتري جريدته كل يوم بخمسة سنتيمات، من أحد أركان شارع سانت أو نوريه، ويبتاع رغيفين صغيرين، ثم يدلف إلى الوزارة، وكأنه مذنب يسلم نفسه للسجن. فيتجه إلى مكتبه مسرعاً، وقلبه مفعم هما. فهو يتوقع دائماً أبداً تأنيب رؤسائه عن إهمال بدر منه.

ولم يحدث قط ما يغير من نظام حياته الرتيب؛ فهو لم يكن يتأثر لأي حدث آخر غير المسائل المكتبية، والترقيات والمكافآت. وسواء أكان في الوزارة أم كان في البيت،فهو متزوج من ابنة أحد زملائه الفقراء، لم يكن يتحدث إلا عن الخدمة الحكومية. فقد انحط ذهنه من هذا العمل اليومي الذي يولد البلادة، ولم تعد تخالجه قط أفكار أخرى أو آمال أخرى غير ما يتصل بوزارته. ولكن ثمة مرارة كانت تفسد عليه شعوره بالرضى كموظف، بسبب ترقية رؤساء البحارة في السفن،وكانوا يطلقون عليهم اسم "السباكين" لما يرتدون من شرائط فضية، بسبب ترقيتهم إلى وظائف الرؤساء أو مساعدي الرؤساء. وكان في كل مساءن وأثناء العشاء، يأتي بالبينات أمام زوجته التي كانت تشاطره ضغائنه وأحقاده، ليثبت لها أنه من الظلم بمكان أن تمنح الوظائف في باريس لأشخاص مؤهلين للملاحة.

وها هو وقد غدا عجوزاً دون أن يحس بحياته تتقدم، فقد اتصلت

حياته المدرسية بحياته الوظيفية دون فترة انتقال، وحل محل المدرسين الذين كان يرتجف أمامهم فيما مضي، رؤساء يخافهم غاية الخوف. كانت عتبة هؤلاء الطغاة القابعين في حجراتهم، تبعث القشعريرة فيه من أخمص قدمه إلى قمة رأسه. وكانت تلازمه بسبب هذا الرعب المقيم، طريقة خرقاء ولكنه عصبية عند المثول أمامهم.

ولم يكن يعرف من باريس أكثر مما يعرفه ضرير يقوده كلبه كل يوم، في نفس الطريق. وإذا كان يقرأ في جريدته الرخيصة، الحوادث والفضائح، فقد كان يرى فيها قصصاً خيالية، اختلقت بعناية لتسلية صغار الموظفين. كان محباً للنظام، رجعياً لا حزب له، ولكنه عدو لكل جديد، ولهذا كان يهمل الأحداث السياسية التي كانت جريدته تشوهها على كل حال، وفقاً لما يدفعه أصحاب الأغراض، وكان وهو يصعد كل مساء في شارع الشانزليزيه، يتأمل الجماهير المتدفقة من المتنزهين وسيل العربات الجارية، وكأنه سائح غريب، يجتاز بلاداً نائية.

ولما كان قد أتم في هذه السنة نفسها سنيه الثلاثين في الخدمة الإجبارية، فقد أنعم عليه في اليوم الأول من يناير بوسام جوقة الشرف الذي يمنح في هذه الإدارات العسكرية، لأصحاب الخدمة الطويلة البائسة –ويقال عنها أنها خدمات مخلصة– يمنح لهؤلاء التعساء الذين قضى عليهم بالسجن في مكاتبهم مدى الحياة. وغيرت هذه الرتبة المفاجئة، أخلاقه تغييراً تاماً، فقد أعطته عن نفسه وقدرته فكرة سامية

جديرة، فأقلع منذ ذلك الحين عن السراويل الملونة والسترات المبهرجةن وأصبح يرتدي سراويل سوداء وسترات ريدنجوت طويلة، حيث كانت شريطة الوسام العريضة تبدو أبلغ أثراً. وأخذ يحلق ذقنه كل صباح، ويقلم أظافره بعناية أشد، ويغير ثيابه الداخلية كل يومين، فقد كان يحس احساساً عميقاً بالاحترام لهذا النظام الوطني الذي غدا عضوا فيه. وهكذا أصبح بين عشية وضحاها كارافان آخر، نظيفاً مهيب الطلعة، ينظر إلى الناس من عل.

وكان يقول في بيته وفي كل مناسبة "سامي" وتسلطت عليه كبرياء شديدة، حتى أنه لم يعد يطيق أن يرى في العروة العليا من سترات الرجال الآخرين، أي شريط من أي نوع. وضاق ذرعا لمرأى الأوسمة الأجنبية ،التي كان يرى تحريم حملها في فرنسا. وكان حانقاً بنوع خاص على الدكتور شينيه، الذي ألف أن يقابله كل مساء في التزام مزينا صدره بوسام ما، أبيض، أزرق، برتقالي أو أخضر.

وكان حديث الرجلين، ابتداء من قوس النصر حتى نويي، هو الحديث نفسه دائماً. وفي ذلك اليوم كما هو الحال في الأيام السابقة. اهتما بسوء استعمال السلطة المحلية، الذي كان يثير كلا منهما، فقد كان عمدة نويي يتصرف كما يحلو له، طرق كارافان– كالعادة مع الأطباء– موضوع الأمراض، مؤملاً أن يحصل بهذه الطريقة على يضع نصائح مجانية. أو استشارة طيبة مستعيناً على ذلك بحسن التصرف حتى

لا يكشف لعبته. وكانت حالة أمه الصحية تقلقه منذ بعض الوقت، إذ كثرت نوبات صرعها، ومع أنها عجوز في التسعين من عمرها، إلا أنها لم تكن تقبل أي علاج.

وكانت سنها المتقدمة تثير الإشفاق في نفس كارافان فكان لا يفتأ يردد "للدكتور" شينيه: "هل رأيت كثيرين وصلوا إلى هذه السن؟" وكان يفرك يديه في سعادة، لا لأنه يريد أن تخلد أمه على هذه الأرض، ولكن لأن طول حياتها كان يطمئنه على حياته هو فيرى لنفسه الأمل في أن يعمر طويلاً.

واستطرد يقول:

– أوه! أن أفراد أسرتنا يعمرون طويلاً، وأنا مثلاً على يقين من أنني سأموت بعد عمر طويل إذا لم يحدث لي حادث ما.

وألقي عليه ضابط الصحة نظرة اشفاق؛ وتأمل لحظة وجه جاره المحمر وعنقه السمين، وبطنه المتدلية على ساقين رخوتين، وكل بدانته بدانة الموظف العجوز المسترخي التي توحي باحتمال إصابته بالسكتة القلبية. وأجاب ضاحكاً وهو يرفع قبعته القشية ذات اللون الرمادي:

–لا تكن واثقاً غلى هذا الحد يا عزيزي، إن أمك هزيلة أما أنت فمكتنز شحماً!

واضطراب كارافان وسكت.

وبلغ الترام المحطة، ونزل الرفيقان، ودعا مسيو شينيه رفيقه إلى

تناول شراب الفرموت في قهوة الجلوب التي تواجه المحطة، والتي اعتاد كل منهما التردد عليها. ومد لهما صاحب المحل- وهو صديق لهما- أصبعين من يده شدا عليهما من فوق قناني البنك؛ وذهبا لينضما إلى ثلاثة من هواة لعبة الدومينو، جلسوا هناك منذ الظهر. وتبودلت عبارات الود والترحيب مع "هل من جديد؟" اللازمة التي لابد منها. ثم انصرف اللاعبون إلى لعبهم؛ وبعد قليل نهضا مودعين أصدقاءهما اللاعبين الذين مدوا أيديهم دون أن يرفعوا رءوسهم، وعاد كل منهما إلى منزله للعشاء.

وكان كارافان يسكن، قرب ميدان كوربقوان بيتاً صغيراً ذا ثلاثة طوابق، يشغل الطابق الأرضي منه أحد الحلاقين.

وكانت شقته تتكون من غرفتين للنوم وحجرة للمائدة ومطبخ. وكانت ثمة مقاعد كثر في حاجة لإصلاحها، تنتقل من حجرة إلى أخرى حسب الحاجة. وكانت مدام كارافان تنفق وقتها في تنظيف الشقة، بينما بنتها ماري لويز وهي في الثانية عشرة، وابنها فيليب أو جيست، وهو في التاسعة، يركضان ويلعبان في الطريق مع الأشقياء من أولاد الحي.

وأسكن كارافان في الطابق العلوي، أمه التي كان بخلها مشهوراً بين الجيران. وكان نحافتها تحمل الناس على القول بأن الله قد طبق عليها نفس مبادئها في التقتير وهي امرأة سيئة الطبع، لا يمر عليها يوم دون مشاجرات أو منازعات. وكانت تكيل الملامة من نافذتها، للجيران الواقفين أمام أبوابهم، وبائعات الخضر المتجولات، والكناسين والأطفال

الذين كانوا يتبعونها من بعيد عندما تخرج ليثأروا لأنفسهم وهم يصيحون خلفها بأقذع ألفاظ السباب.

وكانت تقوم بالخدمة في المنزل فتاة نورماندية صغيرة طائشة، وكانت تنام في الطابق الثاني بقرب العجوز، خشية حدوث حادث ما.

ولما دخل كارافان في شقته وجد زوجته- وهي مصابة بمرض التنظيف المزمن- وجدها تلمع بقطعة من الصوف، خشب المقاعد المبعثرة في فراغ الحجرات. وكانت تلبس دائماً قفازين من الخيط وتزين رأسها بقلنسوة ذات أشرطة متعددة الألوان، مائلة على أذنها دائما. وكانت تردد كلما فوجئت وهي تدهن وتنظف وتلمع وتغسل: "إنني لست غنية، وكل شيء في بيتي بسيط، والنظافة هي مظهر ترفي الوحيد".

وكانت رائدة لزوجها في كل شيء فقد وهبت لباقة وحسن تصرف، وكانا في كل ليلة على المائدة، ثم في فراشهما يتحدثان طويلاً عن شئون المكتب.. لقد كانت تصغره بعشرين عاماً، ومع هذا كان يفضي إليها بشئونه وكأنها مرشد لضميره، وكان يتبع نصائحها في كل شيء.

ولم تكن جميلة يوماً ما، وهي الآن قبيحة، قصيرة القامة، نحيلة الجسم، وكان جهلها بالملبس والتجمل يخفي تقاطيعها النسائية الضئيلة التي كان يمكن ابرازها بطريقة ما لو عرفت كيف تختار ثيابها. وكانت مآزرها تبدو دائماً معوجة إلى أحد الجانبين، وكثيراً ما كانت تهرش جسمها، في أي جزء منه، دون مبالاة بالحاضرين حتى صار ذلك عادة

قبيحة لديها. أما زينتها الوحيدة فكانت الشرائط الحريرية المتشابكة، فقد اعتادت أن تضع الكثير منها على القلنسوات التي ألفت لبسها في البيت.

ولما رأت زوجها نهضت وقالت له وهي تقبله: "هل فكرت في بوتان يا عزيزي؟"(وكان هذا بسبب رسالة وعد أن يبلغها) ولكنه سقط مذعوراً على أحد المقاعد، فقد نسى للمرة الرابعة وقال: "إنه قدر مكتوب! إنه قدر مكتوب! مهما أفكر في ذلك طول النهار فإني انساه دائماً في المساء".

وبدا حزيناً مهموماً فأخذت تسرى عنه.

– ستفكر في ذلك غدا، هذا هو كل ما في الأمر. هل من جديد في الوزارة؟

– نعم.. خبر عظيم.. لقد عين "سباك" آخر مساعد رئيس!

وبدا عليها الجد والاهتمام:

– في أي مكتب؟

– في مكتب المشتريات الخارجية

وغضبت كثيراً

– محل رامون إذن، المنصب الذي كنت أريده لك بالذات، وهو؟ رامون؟ هل أحيل على المعاش؟

فغمغم يقول:

– على المعاش.

وتملكتها ثورة جارفة فسقطت القلنسوة على كتفها

– أترى.. لقد انتهى الأمر في هذه الوزارة الحقيرة، ليس في الإمكان اصلاح أي شيء هناك الآن.. وما اسم القوميسير[٣] الجديد.

– بوناسو

فتناولت دليل البحرية السنوي، وكان دائماً في متناول يدها، وبحثت فيه.. بوناسو– طولون، ولد في ١٨٥١– صبي قوميسير في ١٨٧١ ومساعده قوميسير في ١٨٧٥"

– وهل خدم هذا الرجل في البحر؟

واستعاد كارافان بشاشته لهذا السؤال. وتملكه مرح جعل يهز كرشه وقال: أنه مثل "بالان" بالضبط.. رئيسه بالان! وأضاف وهو يقهقه بصوت عال، نكتة قديمة كانت الوزارة كلها تستملحها: يجب ألا يبعث بهما على البحر لتفتيش نقطة "بوان دي جور البحرية، فقد يصيبهم دوار البحر من ركوب القوارب الصغيرة!"

لكنها لزمت جانب الجد، وكأنها لم تسمع شيئاً ثم غمغمت تقول

[٣] ضابط في البحرية الفرنسية يقوم بالأعمال الحسابية الخاصة بالمؤن.

وهي تهرش ذقنها في بطء: "لو أن لنا صلة بأحد النواب؟ عندما يعرف المجلس ما يحدث هناك.. فسينقلب الوزير في الحال".

وسمع صراخ عال في الدرج فقطعت عبارتها، كان فيليب أو جيست وماري لويز عائدين من الطريق، وهما يتبادلان الصفعات والركلات، واندفعت أمهما غضبي، وأمسكت بكل منهما من ذراعيه، وقذفت بهما في داخل الشقة وهي تهزهما بعنف.

وما كان الطفلان يريان أباهما حتى أسرعا إليه. وأخذ هو يقبلهما طويلاً في حنان. ثم جلس وأجلسهما على ركبتيه وجعل يحدثهما.

وكان فيليب أو جيست ولدا شقيا مهوش الشعر قذراً من قدمه إلى رأسه، وجهه وجه أبله. وكانت ماري لويز تشبه أمها وتتحدث مثلها، وتكرر ألفاظها، وتقلدها حتى في حركاتها، فقالت هي أيضاً: "هل من جديد في الوزارة؟" فأجابها في مرح:- "صديقك رامون الذي كان يأتي للعشاء معنا مرة كل شهر، سيتركنا يا بنيتي! وهناك مساعد رئيس جديد مكانه!" فرفعت عينيها إلى أبيها وقالت في رثاء طفلة أدركت قبل الأوان: "إذن فها هو ذا رجل آخر يمر فوق ظهرك؟"

وكف عن الضحك ولم يجب. ثم قال لزوجته التي كانت تنظف زجاج النافذة، ليحول مجرى الحديث:

-والأم.. أهي في صحة جيدة؟

وتوقفت مدام كارافان عن العمل واستدارت إليه، وأصلحت قلنسوتها التي كانت قد انزلقت على ظهرها، وقالت له وشفتها ترتعش:

– "آه: نعم فلنتحدث الآن عن أمك! لقد أوقعتني في مأزق حرج. تصور أن مدام ليبودان، زوجة الحلاق، صعدت لتقترض مني كيس نشاء. وكنت في الخارج فطردتها أمك وقالت لها: "أيتها الشحاذة!" لذلك فقد أصلحت أمر هذه المرأة العجوز، وتظاهرت هي بأنها لم تسمع شيئا، كعادتها دائماً عندما يواجهها الإنسان بالحقائق. ولكنها ليست أشد صمما مني، أتفهم.. كل هذا تمثيل، والدليل على ذلك، هو أنها صعدت إلى غرفتها في الحال دون أن تنبس بكلمة".

وسكت كارافان خجلا، وأقبلت الخادمة الصغيرة مسرعة تعلن عن العشاء. عندئذ أخذ يد مكنسة قديمة كان يخفيها في أحد الأركان، وطرق بها السقف ثلاث طرقات لكي ينبه أمه. ثم انتقلوا إلى غرفة المائدة ووزعت الزوجة الحساء، في انتظار وصول العجوز. ولكنها لم تأت. وبدأ الحساء يبرد، وحينئذ شرعوا يأكلون على مهل، فلما خلت الصحاف، انتظروا ثانية. وصاحت مدام كارافان في زوجها ثائرة: "إنها تتعمد ذلك، أترى؛ ومع هذا فأنت تدافع عنها دائماًّ!". أما هو فقد اشتدت حيرته بين المرأتين، وبعث ماري لويز لتنادي جدتها، وظل جامداً خافض العينين، بينما زوجه تقرع في غضب أسفل كوبها بطرف السكين.

وفجأة، انفتح الباب، وظهرت الفتاة وحدها، لاهثة شديدة

الشحوب وقالت مسرعة: "لقد سقطت جدتي على الأرض"

فوقف كارافان دفعة واحدة، وقذف بمنشفته على المائدة، واندفع على الدرج حيث دوت خطوته الثقيلة العجلى، بينما كانت زوجته، تظنها خدعة خبيثة من حماتها، فتقدمت في ريث، وهي تهز كتفيها باحتقار.

وكانت العجوز متمددة وسط الحجرة، وقد انكفأت على وجهها، وعندما أدارها ابنها، بدت جامدة يابسة، ببشرتها المصفرة المتغضنة، وعينيها المغمضتين، وأسنانها المصرورة، وجسمها النحيل المتصلب كله.

وركع كارافان إلى جوارها وهو يقول في أنين:

– أمي المسكينة!

وقالت الزوجة بعد أن تأملتها لحظة:

–لقد أغمى عليها مرة أخرى، هذا هو كل ما في الأمر؛ ثق أنها تريد أن تحرمنا من العشاء!

ورفعت على الفراش، وجردت من ثيابها، وأخذ كارافان وزوجه والخادمة جميعاً في تدليكها. لكنها لم تستعد رشدها على الرغم من جهودهم. وعندئذ بعثوا روزالي لتأتي "بالدكتور" شينيه، وكان يسكن على رصيف السين في اتجاه سورين، وكان المكان بعيداً وطال الانتظار، وأخيراً وصل، وبعد أن تأمل المسكينة وجس نبضها وفحصها قال:

– إنها النهاية!

فارتمى كارافان على الجسد المسجى، تهزه شهقات سريعة، وأخذ يقبل وجه أمه الجامد وعضلاته ترتعش، وهو يبكي بكاء مرا، حتى أن الدموع كانت تسقط كنقط الماء على وجه المتوفاة".

وأصاب الزوجة نوبة حزن يناسب المقام، وكانت تقف خلف زوجها تئن أنيناً خفيفاً، وتفرك عينيها في عناد.

ونهض كارافان فجأة، وقد انتفخ وجهه وانتفش شعره الخفيف، وبدا الرجل في غاية القبح في حزنه الصادق وقال:

–أمتأكد يا دكتور.. هل أنت متأكد تماماً؟

واقترب ضابط الصحة بسرعة، وقلب الجثة في مهارة أهل المهنة كالتاجر يريد أن يظهر بضاعته، وقال:

– إليك يا عزيزي.. انظر العين!

ورفع الجفن، وظهرت عين المرأة من جديد تحت أصبعيه، لم تتغير قط، ولعل الحدقة كانت أوسع قليلاً. فأحس كارافان بصدمة في قلبه، وسرت القشعريرة في عظامه.

وتناول مسيو شينيه يدها المتشنجة، وضغط على الأصابع ليفتحها ثم قال وقد بدا عليه الغضب وكأنه يواجه معارضاً:

–ولكن انظروا إلى هذه اليد، أنا لا أخطئ أبداً في مثل هذه الحالة، اطمئنوا!

وسقط كارافان على الفراش ثانية وهو يصرخ صراخاً شديداً، بينما كانت زوجته، وهي لا تزال تتكلف البكاء، تقوم بالأمور اللازمة في مثل هذه الأحوال. فقربت نضد الليل "الكومودينو" وفرشت عليها منشفة بيضاء، ووضعت عليها أربع شمعات أشعلتها وتناولت فرعا من نبات كان معلقاً خلف مرآة المدفأة، ووضعته بين الشموع في صحن ملئ بالماء الصافي، إذ لم تكن لديها ماء مقدسة. لكنها بعد تفكير سريع، ألقت في هذا الماء بعض الملح، وقد خيل إليها دون شك، انها بفعلتها هذه تقوم بأحد الطقوس الدينية.

ولما انتهت من هذه المراسم التي لابد منها ساعة الموت، ظلت واقفة لا تتحرك، عندئذ قال لها ضابط الصحة الذي كان يعاونها في ترتيب الأشياء، قال لها في صوت منخفض للغاية: "يجب إخراج كارافان!" ووافقته بايماءة من وجهها واقتربت من زوجها الذي كان ينتحب جاثياً على ركبتيه، فأنهضته من احدى ذراعيه، بينما أمسك مسيو شينيه بذراعه الثانية.

وأجلساه على مقعد أولا، ثم طبعت زوجته قبلة على جبهته وأخذت تعظه، وكان ضابط الصحة يؤيد كلامها وينصح بالثبات والشجاعة والاستسلام وبكل ما يمكن مراعاته إبان هذه الكوارث العصبية. ثم أسنداه مرة أخرى، ونزلا به.

وكان يذرف الدمع كطفل كبير ترجيفه الشهقات، وألقى بنفسه وقد

تدلت ذراعاه، واسترخت ساقاه، ونزل الدرج وهو لا يدري ماذا كان يفعل، وكان يحرك قدميه بطريقة آلية.

ووضعاه في المقعد الكبير الذي اعتاد أن يجلس فيه دائماً إلى المائدة، أمام صحفته الفارغة تقريباً، حيث كانت ملعقته غاطسة في بقية من حساء. وبقى هكذا بلا حراك، عينه مركزة على كوبه، شديد التبلد، لا يمر برأسه خاطر ما.

وانتحت مدام كارافان بالطبيب ركنا، وراحت تتحدث معه، وتستوضحه عن الإجراءات، وتسأله الرأي في بعض المسائل. وأخيراً تناول مسيو شينيه قبعته، وبدأ كأنه ينتظر شيئاً، وأعلن أنه لم يتناول عشاءه بعد، وسلم لينصرف، فصاحت به:

– كيف، ألم تتناول عشاءك بعد؟ ابق يا سيدي الدكتور، ابق معنا! سنقدم لك الموجود لدينا؛ وأنت تعرف اننا لا نأكل ألواناً كثيرة.

ورفض معتذراً، غير أنها ألحت:

– كيف؟ لابد أن تبقى، فإنه ليسعدنا أن يكون بجوارنا أصدقاء في مثل هذه الساعات، ثم لعلك تسرى عن زوجي قليلاً؛ فهو في أشد الحاجة إلى أن يتشجع!

ونزل الطبيب عند رغبتها وقال وهو يضع قبعته على قطعة من الأثاث:

– في هذه الحالة، أقبل يا سيدتي!

وأصدرت أوامرها إلى روزالي التي بدا اضطرابها، ثم جلست هي إلى المائدة: "لكي تتظاهر بالأكل وتجلس في صحبة "الدكتور" على حد قولها.

وعاودا فتناولوا بعض الحساء البارد.. وطلب منه السيد شينيه مرة ثانية، ثم ظهر صحن من الكرشة مطبوخ على طريقة أهل ليون، فاحت منه رائحة البصل، وعقدت مدام كارافان العزم على أن تذوقها، وقال الطبيب: "إنها مدهشة" وابتسمت قائلة: "أليس كذلك؟" ثم استدارت إلى زوجها قليلاً منها يا عزيزي الفريد، لتضع في معدتك شيئاً فحسب، وتذكر أنك ستقضى الليل ساهراً!"

فمد صحفته في خضوع، مطيعاً في كل شيء بلا مقاومة ولا تفكير، وتناول نصيبه من الطعام.

وكان الطبيب يغرف لنفسه، فغرف ثلاث مرات في طبقه، بينما كانت مدام كارافان تفرز طرف شوكتها في قطعة كبيرة، بين الحين والحين، وتبتلعها في سهو متكلف تكلفاً متقناً.

ولما ظهرت سلطانية ملأي بالمكرونة، تمتم الطبيب يقول: "يا الله! هذا شيء طيب!" وفي هذه المرة، عرفت مدام كارافان للجميع وملأت كذلك الطاستين اللتين يأكل فيهما الطفلان وكانا قد أخذا يعبان من النبيذ لما تركا وحيدين وجعلا في هذه اللحظة يتراكلان تحت المائدة. وذكر مسيو شينية حب روسيني لهذا الطبق الطلياني، ثم قال فجأة:

– إنها موزونة.. ويمكن أن تبدأ قصيدة شعرية.

"المايسترو روسيني كان يحب المكروني!" ولم يكن أحد يصغى إليه، فقد أعملت مدام كارافان ذهنها فجأة، وراحت تفكر في كل النتائج المحتملة للحادث. بينما أخذ زوجها يصنع كرات صغيرة من الخبز ويضعها بعد ذلك على المفرش. ثم يثبت نظراته فيها وعليه سيماء البلاهة. وكان ثمة ظمأ شديد يلهب حنجرته فكان لا يفتأ يعب من كوبه المليء بالنبيذ، وارتبك عقله من الصدمة والحزن، وغدا مضطرباً، وبدا كأنه يرقص نتيجة للدوار المفاجئ الناشئ عن عملية الهضم في بدايتها.

أما الطبيب فقد أفرط في الشرب وظهر عليه السكر. وبدت مدام كارافان متأثرة برد الفعل الذي يتبع كل هزة عصبية، ورغم أنها لم تشرب غير الماء فإنها كانت تحس برأسها يدور قليلاً.

وأخذ الدكتور شينيه يروى حوادث وفيات كان يراها غريبة مضحكة، فإن المرء ليلمس في هذه الضاحية الباريسية التي تعج بسكان الريف، عدم اكتراث الفلاح أمام الميت، حتى ولو كان أباه أو أمه، وهي وقاحة أو قسوة لا شعورية شائعة شيوعاً شديداً في الأرياف، وهي أندر ما تكون في باريس، وكان الدكتور يقول: "إليكم، دعيت في الأسبوع الماضي إلى شارع بوتو، فأسرعت ووجدت المريض قد مات وكان أفراد الأسرة جالسين قرب الفراش، وهم يفرغون في هدوء زجاجة من العرقي، اشتروها في اليوم السابق ارضاء لنزوة رجل مشرف على الموت.

لكن مدام كارافان لم تكن تصغى إليه، كانت تفكر في الميراث. أما كارافان فقد خلا مخه تماماً، ولم يعد يفقه شيئاً.

وقدمت القهوة وقد صنعت مركزة لتقوى الروح المعنوية، وأضيف إلى كل فنجان بعض الكونياك، فصعدت الحمرة المفاجئة إلى الخدود واختلطت البقية الباقية من الأفكار في هذه الرءوس المشوشة.

وتناول الطبيب فجأة زجاجة العرقي وسكب "المضمضة" للجميع، وأحسوا بالاسترخاء بفعل الدفء اللذيذ الناتج عن الهضم، وتملكتهم هذه الراحة الحيوانية التي يولدها الخمر بعد العشاء، فلم يتكلموا وجعلوا يتلمظون في بطء بالكونياك الحلو، الذي رسب كمستحلب أصفر في قاع الفناجين.

وكان الصغيران قد ناما فذهبت بهما روزالي إلى الفراش.وحينئذ انقاد كارافان إلى الحاجة إلى النسيان، تلك الحاجة التي يستشعرها كل البؤساء، فشرب عدة مرات من الكونياك، ولمعت عيناه المتبلدتان.

ونهض الطبيب آخر الأمر لينصرف، وأمسك بذراع صاحبه وقال له:

– هيا، تعال معي، فإن قليلاً من الهواء سينفعك. إذا ما نزلت المصائب بالإنسان وجب عليه ألا يبقى ساكناً!

وأطاع الرجل الآخر مستسلماً، فوضع قبعته على رأسه، وأخذ عصاه وخرج، وانحدر الاثنان، وقد أمسك كل منهما بذراع الآخر، واتجها نحو

نهر السين تحت سماء صافية ترصعها النجوم اللامعة.

وكانت ثمة نسمات عطرة تعبق هذا الليل الحار، لأن الحدائق المجاورة كانت كلها في هذا الفصل من السنة مليئة بالأزهار الغافية نهاراً، المستيقظة كلما دنا الليل، فيتصاعد عندئذ شذاها ممتزجا بالسمات الخفيفة السارية في الظلام.

وكان الشارع الواسع مقفراً صامتاًن وعلى جانبيه صفان من المصابيح الغازية الممتدة حتى قوس النصر، ثم رأيا باريس، فهي قابعة هناك غير بعيد ترسل صخبها المعهود في ضيائها الأحمر، وتردد أصداءه أحياناً من بعي، صفارة قطار آت عبر السهل بأقصى سرعته أو فار خلال المقاطعات في اتجاه المحيط.

صفع الهواء وجه الرجلين، مفاجئاً لهما أول الأمر، فأخل بتوازن الطبيب، وزاد من نوبات الدوار التي كانت تنتاب كارافان منذ العشاء، فجعلته يسير كالحالم. مغلق الذهن، مشلولاً، دونما حزن، وقد سيطر عليه ضرب من الخمول النفسي يمنعه من أن يتألم، بل إنه كان يستشعر خفة يزيد منها الأبخرة الدافئة المنتشرة في الظلام.

ولما بلغا معبراً فوق النهر، تحولا إلى اليمين، ونفت النهر في وجهيهما نسمة باردة، كان الماء يجري حزيناً هادئاً أمام ستار من شجر الحور الباسق. وثمة نجوم تبدو كأنها تسبح على الماء الرجراج. وكانت هناك ضبابة رقيقة بيضاء تنسدل على الشاطئ من الناحية الأخرى،

وتحمل إلى الرئتين عطراً رطباً. وتوقف كارافان فجأة، متأثراً برائحة النهر هذه، التي كانت تحرك في قلبه ذكريات قديمة جداً.

وفجأة استعاد صورة أمه، فيما مضى، أثناء طفولته، وقد انحنت راكعة أمام الباب، هناك في بيكاردى، وكانت تغسل الثياب الوسخة المكومة بجانبها، في مجرى الماء الذي يخترق الحديقة. وسمع صوتها في سكون الريف الهادئ، صوتها الذي كان يصيح:– "الفريد! هات لي الصابون!" وكان يشتم نفس رائحة الماء الذي يسيل، ونفس هذا الضباب الذي كان يتصاعد من الأراضي المغطاة بالماء. ونفس هذا البخار المنبعث من المستنقعات والذي ظل طعمه في حواسه لا ينساه، وأخذ يسترجعه في هذه الليلة بالذات التي قضت فيها أمه. وتوقف متصلباً أثر نوبة من اليأس العنيف، فقد كان هذا أشبه بومضة من النور أضاءت دفعة واحدة، ألمه العظيم. وهكذا قذفت به هذه النسمة الشاردة في هاوية مظلمة من الأوجاع المحضة، وأحس بقلبه يتمزق لهذا الفراق الدائم. لقد قصمت حياته من وسطها. وكان شبابه كله يختفي مغموراً في هذا الموت. فقد انتهى الماضي كله. وتلاشت ذكريات المراهقة جميعاً. ولن يستطيع أحد بعد اليوم أن يحدثه عن الأشياء القديمة وعن الناس عرفهم فيما مضى، وعن بلده، وعن نفسه، وعن دخائل حياته السالفة. إن جزءاً من كيانه قد كف عن الوجود، وليس على الجزء الباقي ألا أن يموت. الآن.

وبدأ سيل الذكريات يغمره، كان يسترجع أمه في شبابها وقد ارتدت ثياباً رثت على جسمها، لبستها مدة طويلة، بحيث بدت جزءاً لا ينفصل

من شخصها. يسترجع صورتها في ألف مناسبة كان قد نسيها، في أشكالها الباهتة، وحركاتها، ونبرات صوتها، وعاداتها ونزواتها، وغضباتها وتجعدات وجهها، وحركات أصابعها النحيلة، وكل هذه الأوضاع الأليفة التي لن تكون بعد اليوم.

وتثبت بالطبيب وأرسل أناته، وكانت ساقاه الرخوتان ترتعشان، وكان النحيب يهز شخصه البدين بأكمله وهو يتمتم: "أمي! أمي المسكينة!"

ولكن زميله وما زال ثملاً، كان يحلم بأن يختتم ليلته في أماكن يتردد عليها خفية. فأجلسه على أعشاب الشاطئ، وقد ضايقته هذه النوبة الجارفة من الحزن، وتركه متعللاً بزيارة مريض.

وبكى كارافان طويلاً، فلما جفت ما فيه، وانسكبت آلامه جميعها، أحس من جديد عزاء، وراحة، وهدوءا مفاجئاً.

وكان القمر قد طلع وفاض على الأفق بنوره الهادئ. وكانت أشجار الحور الباسقة، تعكس الضوء الفضي، والضباب المنتشر على السهل يبدو كأنه قطع طافية من الثلج. أما النهر، فلم تعد تسبح فيه النجوم، لقد بدا عند ذاك كالصدف المجعد. وكان الهواء لطيفاً والنسيم عطراً، فكأن الأرض قد استرخت في نعاسها. وكان كارفان يعب من هذا الليل العذب غبا، ويستنشق الهواء طويلاً، فأحس كأن شيئاً من البرودة أو الهدوء العلوي قد سرى في أجزاء جسمه جميعاً.

غير أنه كان يقاوم هذه الدعة الهابطة عليه، وجعل يردد في نفسه:

"أمي! أمي المسكينة!" وهو يستحث نفسه على البكاء، يدافع من ضمير رجل أمين. لكنه لم يستطع إلى البكاء سبيلاً. ولكن الذكريات التي دفعته منذ قليل إلى البكاء والنحيب، لم يعد لها تأثير عليه.

عندئذ نهض ليعود إلى بيت، وسار في خطى بطيئة يشمله هدوء الطبيعة الصافية، تلك الطبيعة التي لم تكترث لآلامه، وهدأ قلبه على الرغم منه. وعندما بلغ الجسر، لمح مصباح آخر ترام على أهبة الرحيل. وبدت من خلفه النوافذ المضيئة بمقهى الجلوب.

وفي هذه اللحظة أحس بحاجته إلى أن يفضى بحزنه إلى أي شخص، وأن يستثير عطف الغير، وأن يصبح موضعاً للاهتمام، فاتخذ وجها يثير الشفقة. ودفع باب المقهى، وتقدم نحو المائدة المستطيلة "البار" حيث يقف صاحب المحل دائماً، وكان يتوقع أن يحدث دخوله أثراً ما، أن ينهض الجميع مثلاً، ويقبلوا عليه مادين أيديهم قائلين: "بالله! ماذا حل بك؟" لكن أحداً لم يلحظ كآبة وجهه، وعندئذ انكفأ بمرفقيه على "البار"، وعصر جبهته بين يديه، وغمغم يقول: "يا الهي! يا الهي!" فتأمله صاحب المحل وقال: "هل أنت مريض يا مسيو كارافان؟" فأجاب: "كلا يا صديقي. ولكن أمي ماتت!". وأطلق الرجل الآخر آهة وهو منصرف البال عنه. غير أن أحد العملاء كان يصيح في آخر المقهى: "قدح من فضلك!" فأجاب في الحال بصوت فظيع:– "ها هو ذا.. أنا قادم!" وأسرع ليقدم الطلب تاركا كارافان مشدوها.

وكان هواة الدومينو الثلاثة مستغرقين في لعبهم حول المائدة نفسها، التي جلسوا حولها قبل العشاء. فاقترب منهم كارافان استجداء للشفقة. ولما لم يبد على أحدهم أنه رآه، صمم على الكلام، وقال لهم:– "لقد حلت بي مصيبة فادحة بعد أن فارقتكم!"

ورفع ثلاثتهم رءوسهم قليلاً في وقت واحد، وإن ظلت عيونهم مثبتة على أوراق اللعب التي يمسكونها بأيديهم:

– يا الله! ما الخبر؟

–"لقد ماتت أمي!

وتمتم أحدهم:– "آه! يا للأسف!" قالها بتلك اللهجة الزائفة التي يتظاهر بها من لا يكترث بالأمر. ولم يجد ثانيهما ما يقول، فأرسل وهو يهز رأسه مصمصة محزنة. وعاود الثالث اللعب وكأنه يقول بينه وبين نفسه: "أهذا كل ما في الأمر؟"

وكان كارافان ينتظر احدى هذه العبارات التي يقال إنها صادرة من القلب، فلما استقبل هذا الاستقبال الفاتر، ابتعد محنقاً من عدم مبالاتهم أمام ألم صديق، رغم أن ألمه في هذه اللحظة بالذات كان من الخمود بحيث لم يعد يحس به إلا قليلاً. وخرج محنقاً.

وكانت زوجته تنتظره في قميص النوم، وقد جلست على مقعد منخفض بجوار النافذة المفتوحة، وهي لا تزال تفكر في الميراث فقالت له:

- اخلع ملابسك. سوف نتحدث إذا ما صعدنا على الفراش!

فرفع رأسه وأشار بعينه إلى السقف:

-لكن ألا يوجد أحد فوق؟

- "عفواً، أن روزالي بقربها.. وسوف تحل أنت محلها في الثالثة صباحاً بعد أن تأخذ قسطاً من النوم[٤].

ومع ذلك فقد بقي ببعض ملابسه، مستعداً لكل جديد. وعصب منديلاً على رأسه ثم لحق بزوجته التي كانت قد اندست تحت الملاءات.وبقيا بعض الوقت جالسين جنباً إلى جنب، وكانت هي تفكر.

وكانت تصفيفة شعرها، حتى في هذه الساعة، تزينها عقدة وردية مائلة قليلاً على الأذن؛ بفعل القلنسوات التي اعتادت دائماً أن ترتديها.

وفجأة قالت له وهي تتجه برأسها نحوه:

-هل تعرف إن كانت أمك قد كتبت وصية ما؟

وتردد:

-أنا.. أنا.. لا أعتقد.. لا.. من غير شك.. أنها لم تكتب وصية.

ونظرت مدام كارافان إلى زوجها في عينيه، وقالت له في صوت خفيض ساخط:

---

[٤] من عادات الفرنسيين أن يسهر الأهل قرب جثة الميت حتى الصباح.

– ألا ترى أنها إهانة كبيرة. فها نحن منذ عشر سنوات نهلك أنفسنا في العناية بها ونؤويها ونطعمها! ولم تكن أختك لتفعل بها كل هذا، ولا أنا أيضاً، إذا كنت قد عرفت أنها ستكافئني هكذا عن صنيعي! نعم إنها لوصمة لذكراها! ستقول لي أنها كانت تدفع أجرا، هذا حق، ولكن عناية الأبناء، لا تؤجر بالمال، وإنما يعترف بها في الوصية بعد الوفاة. هكذا يكون سلوك المحترمين مع الناس. إذن فأنا لم أجن غير التعب والمضايقات. آه! هذا جميل حقا.. جميل حقا!"

وكان كارافان يكرر ذاهلاً:

–يا عزيزتي أرجوك.. أتوسل إليك!

وهدأت بعد فترة من الوقت. واستعادت لهجتها العادية واستطردت تقول:

–غدا صباحاً.. يلزم أخطار أختك!

فانتفض وقال:

–هذا ! لم أفكر في ذلك، سأرسل برقية في الصباح الباكر!

غير أنها استوقفته كما يفعل امرأة قدرت كل شيء:

–لا.. أرسلها بين العاشرة والحادية عشرة، حتى يتهيأ لنا وقت نتدبر فيه قبل وصولها. فلن يستغرق الطريق من شارنتون إلى هنا أكثر من ساعتين.. ستزعم أنك فقد صوابك. وبإخطارك لهما في الضحى.. لن تأتي جرما!

أما كارافان فقد خبط جبهته بيده، وقال في لهجة خائفة، لهجته كلما تحدث عن رئيسه الذي كان مجرد التفكير فيه يرجفه:

– يجب إخطار الوزارة أيضاً.

–وعلام الأخطار؟ فالإنسان معذور إذا نسى في مثل هذه المناسبات. صدقتي لا تخطرهم.. ولن يستطيع رئيسك أن يقول شيئاً. وستضعه في مأزق حرج.

–نعم.. معك حق، إنها فكرة رائعة.. فعندما أعلنه بأن أمي ماتت، سيضطر أن يقفل فمه.

وسعد الموظف بهذه الفكرة، وجعل يفرك يديه وهو يفكر في وجه رئيسه، بينما كان جثمان السيدة العجوز يرقد فوقه في الدور العلوي، بجوار الخادمة النائمة.

وغدت مدام كارافان قلقة، وكأنما قد تسلط عليها هم يصعب الإفضاء به. وأخيراً استقر عزمها:

– لقد وهبتك أمك ساعة الحائط، أليس كذلك؟ الساعة التي عليها تمثال الفتاة تلعب بالكرة والعصا.

وبحث في ذاكرته وأجاب: "نعم نعم فقد قالت لي(ولكن مضى على ذلك وقت طويل، لقد حدث هذا عندما جاءت إلى هنا) قالت لي.. ستكون لك هذه الساعة، إذا عنيت بي عناية كافية".

واطمأنت مدام كارافان، واستعادت صفاء وجهها وقالت:

-إذن.. أترى! يجب أن تذهب لإحضارها، لأننا إذا تركناها، فسوف تمنعنا أختك من أخذها". وتردد: "أتعتقدين ذلك؟

فغضبت:

-أعتقد ذلك بالتأكيد. لكن عندما تصبح الساعة هنا، فلا من رأى ولا من عرف! إنها لنا. وهذا مثل الصوان الموجود في غرفتها، الصوان ذو الرخامة، لقد أعطتني إياه، لي أنا، ذات يوم كانت فيه صافية المزاج، وستنزله مع الساعة!

وبدا كأن كارافان لا يصدق ما يسمع وقال:

- ولكن يا عزيزتي، إنها لمسئولية جسيمة!

فالتفتت عليه ثائرة:

- آه! حقا! لن تتغير أبداً، أنت تفضل أن تترك ولديك يموتان جوعاً، ولا تأتي بحركة، مادامت قد أعطتني الصوان فهو لنا. أنا لا أهتم مطلقاً بأختك هذه! هيا انهض لنحضر توا ما وهبته أمك لنا".

فخرج من السرير مرتعشاً مغلوباً على أمره، وبينما كان يتهيأ لارتداء ملابسه منعته وقالت:

-لا ضرورة لارتداء ملابسك. ابق كما أنت، هذا يكفي، وسأذهب كما أنا.

وذهب كلاهما في ثياب النوم، وصعدا الدرج دون ضجة، وفتحا الباب في حذر، ودلفا إلى الحجرة، حيث كانت الشمعات الأربع، الموقدة حول الصفحة التي وضع فيها الغصن المبارك، تبدو كأنها تحرس وحدها، العجوز في راحتها الأبدية! لأن روزالي ارتمت على مقعدها ومدت ساقيها وشبكت يديها على مئزرها، ومالت رأسها إلى جانب، وكانت تنام جامدة هي أيضاً، وقد فتحت فاها، وراحت تغط غطيطاً ضعيفاً.

وأخذ كارافان الساعة، وكانت واحدة من تلك الأشياء المبتذلة التي صنع منها الكثير في العصر الامبراطوري: "فتاة من البرونز المذهب زينت رأسها بأزهار مختلفة، كانت تمسك بيدها عصا تستعمل كرنها رقاصاً للساعة. وقالت له زوجته:

– أعطني هذه الساعة وخذ رخامة الصوان!

فأطاع وهو يلهث، ورفع الرخامة على كتفه في جهد كبير.

ونزل الزوجان وانحنى كارافان تحت الباب، وأخذ يهبط الدرج وهو يرتجف، بينما كانت زوجته تضيء له الطريق وهي تسير القهقرى، ممسكة شمعة بإحدى يديها ومتأبطة الساعة تحت ذراعها الأخرى.

ولما أصبحا في شقتهما، تنهدت تنهداً عميقاً، وقالت:

– لقد نفذنا أهم شيء.. ولنذهب لإحضار الباقي!

لكن أدراج الصوان كانت تزخر بملابس العجوز البالية، وكان لابد من إخفاء هذا كله، في مكان ما.

وخطر لمدام كارافان خاطر:

-اذهب واحضر الصندوق الخشبي الموجود في البهو، أنه لا يساوي فرنكين ويمكننا أن نضعه هنا". ولما وصل الصندوق، شرعا في عملية النقل.

وأخرجا الأثواب، والياقات المزينة والقمصان والقلانس، وكل ما للعجوز المسجاة هنا خلفهم، من ثياب عتيقة، أخرجاها الواحد تلو الآخر ووضعاها بنظام في الصندوق الخشبي بطريقة تخدع مدام "برو" ابنة المرحومة، التي ستأتي في اليوم التالي.

ولما انتهينا من عملهما، أنزلا الأدراج الثلاثة، ثم أنزلا هيكل الصوان، وقد أمسكا به كل من طرف، وبحثاً طويلاً عن أنسب مكان يمكن وضعه فيه. واستقر الرأي على حجرة النوم.. في مواجهة السرير بين النافذتين.

وما إن وضع الصوان في مكانه الجديد حتى ملأته مدام كارافان بملابسها الداخلية الخاصة. ووضعت الساعة فوق المدفأة في حجرة المائدة. وتأمل الزوجان المنظر الجديد، فأعجبا به في الحال، وقالت هي: "المنظر بديع للغاية!" وأجاب هو: "نعم بديع للغاية!" وأطفأت الشمعة وبعد قليل كان أهل الطابقين جميعاً يغطون في النوم.

وعندما استيقظ كارافان من نومه، كانت الشمس في كبد السماء. ونهض صباحنا مشوش الذهن، ولم يذكر الحادث إلا بعد دقائق،

فصدمته هذه الذكرى صدمة عنيفة، وقفز من فراشه، وقد بلغ به التأثر من جديد كل مبلغ، وأوشك أن ينفجر باكياً.

وصعد مسرعاً إلى الغرفة العليا حيث كانت روزالي لا تزال نائمة، في نفس الوضع الذي رأياها عليه في الليلة السابقة، فقد استغرقت في النوم طيلة الليل. فصرفها إلى عملها، ووضع شمعات جديدة بدل التي استهلكت، ثم تأمل أمه وهو يدير في رأسه تلك القشور من الأفكار الدينية الفلسفية الذائعة لدى متوسطي العقول، والتي يرددونها في مواجهة الموت.

لكنه نزل ثانية، إذ كانت زوجته تناديه، فقد أعدت قائمة بالأشياء التي يجب القيام بها في الصباح، وسلمته هذه الورقة التي أفزعته، وقرأ:

١- إخطار السلطة الإدارية.

٢- استدعاء طبيب الصحة.

٣- التوصية على التابوت.

٤- المرور على الكنيسة.

٥- المرور على محل تجهيز الموتى.

٦- المرور على المطبعة للخطابات.

٧- المرور على موثق العقود.

٨- المرور على مكتب التلغراف لإخطار الأسرة.

وأضافت إلى ذلك جملة من التوصيات الثانوية، فتناول قبعته وخرج.

ولما كان الخبر قد انتشر، أخذت الجارات يتوافدن، ويطلبن مشاهدة المتوفاة[٥].

وعند الحلاق، في الطابق الارضي، قام نزاع بهذا الخصوص، بين الزوجة وزوجها، بينما كان يحلق ذقن أحد العملاء.

وقالت الزوجة وهي تنسج جورباً من التريكو:

– ها هي ذي واحدة تذهب.. كانت بخيلة بخلاً لا يضارعها فيه أحد. لم أكن أحبها كثيراً، هذا حق، لكن يجب أن أذهب وأرها على كل حال.

ودمدم الزوج وهو ينشر الصابون على ذقن عميله:

– يا لها من خواطر عجيبة لا يقدر عليها غير النساء. فهن لا يكتفين بمضايقة الإنسان حياً، وإنما لا يردن أن يدعنه في سلام بعد موته أيضاً!

غير أن زوجته استطردت تقول دون أن تضطرب:

– إنه لأمر أقوى مني، يجب أن أذهب، هذه فكرة تسلطت علي منذ الصباح. يخيل إلي أنني سأفكر فيها طيلة حياتي، إذا لم أرها، ولكني إذا تأملتها جيداً، لترتسم صورتها في ذهني، فسوف أشعر بالرضا فيما بعد!

---

[٥] من عادات الفرنسيين أن يقضي المعزون وقتاً ما أمام جثمان الميت ليودعوه الوداع الأخير.

وهز الحلاق كتفيه، وقال لزبونه، وهو يحك خده: "سألتك بربك ما هذه الأفكار التي تسيطر على هؤلاء النساء! كيف يتسلى المرء بمشاهدة ميت؟". وسمعته زوجته فأجابته دون أن تنزعج: "إنه هكذا.. هكذا!" ثم وضعت شغلها على الصندوق، وصعدت إلى الطابق الأول.

وكانت هناك جارتان جاءتا قبلها، وكانتا تتحدثان عن الحادث إلى مدام كارافان، التي أخذت تروى لهما التفاصيل.

واتجهن إلى غرفة الميتة. ودخلت النسوة الأربع بخطى حذرة، ورششن الغطاء بالماء المملح، الواحدة بعد الأخرى، وركعن ورسمن علامة الصليب، وترنمن ببعض الصلوات، ثم نهضن وقد اتسعت حدقاتهن، وانفرجت أفواههن، وتأملن الجثة طويلاً، بينما كانت زوجة ابن المتوفاة، تتظاهر بإرسال شهقة يائسة، وهي تخفي وجهها بمنديل.

ثم همت بالخروج، فلمحت مارى لويز وفيليب أوجيست واقفين بقميصيهما قرب الباب. وكانا ينظران في فضول. وعندئذ نسيت ألمها المتكلف. وأسرعت إليهما رافعة يدها وهي تصيح في صوت غاضب: "هلا ابتعدتما أيها الشقيان!"

وصعدت بعد عشر دقائق مع حشد من الجارات الأخريات، وهزت الغصن الأخضر على حماتها مرة ثانية، وصلت واغرورقت عيناها بالدموع، وقامت بكل الواجبات، ثم إذا بولديها قد عادا في أعقابها. فصفعتهما على رأسيهما فجرياً من أمامها. وعندما عادا من جديد، لم

تلتفت إليهما في هذه المرة. وكان الصغيران يتبعان كل حشد جديد من الزائرات، ويركعان في ركن الغرفة، ويقلدان أمهما فيما تفعل دون تغيير!

وقلت حشود المعزيات بعد الظهر، ثم انقطعن بتاتا. وعادت مدام كارافان إلى شقتها. وأخذت في الاستعداد للجنازة، وبقيت الميتة وحدها.

وكانت النافذة مفتوحة، فدخلت الحرارة الشديدة مع هبات الغبار، وكان لهيب الشمعات يتأرجح حول الجثمان المسجى، وثمة ذبابات صغيرات تصعد على الملاءة، وعلى العينين المغمضتين، واليدين الممدودتين، وتروح وتجيء ولا تكف عن الجولان حول العجوز.

وذهبت مارى لويز وفيليب أوجيست يتجولان في الطريق، وسرعان ما أحاط بهما زملاء لهما، وخاصة فتيات صغيرات كن أشد تيقظاً وأسرع إدراكاً لأسرار الحياة. وكن يتساءلن كأشخاص كبار في السن: "هل ماتت جدتك؟"– "نعم أمس مساء"– "وكيف يكون الموت؟". وأخذت مارى تشرح وتروى خبر الشمعات، والغصن الأخضر، والوجه. وحينئذ انبعث فضول شديد في نفوس الأطفال جميعاً، وطلبوا أن يصعدوا هم أيضاً لرؤية الميتة.

وفي الحال، نظمت مارى لويز الرحلة الأولى من أكبر الأطفال سناً وأكثرهم جرأة وكانوا خمس فتيات وولدين. وحملتهم على أن يخلعوا نعالهم حتى لا يكتشف أمرهم، وتسللت الجماعة إلى البيت، وصعدت كجيش من الفئران.

وما إن أصبحوا في الغرفة، حتى نظمت الفتاة الطقوس، مقلدة

أمها، فأمت زملاءها في وقار. وركعت ورسمت علامة الصليب، وحركت شفتيها، ونهضت ورشت الفراش بالماء المملح، ثم اقترب الأطفال متزاحمين في ذعر وفضول وسعادة ليشاهدوا وجه المتوفاة ويديها، وأخذت الفتاة فجأة تتظاهر بالنحيب وهي تخفى عينيها في منديلها الصغير، تماماً كما فعلت أمها، ثم تذكرت هؤلاء الذين ينتظرونها أمام الباب، فقادت جماعتها كلها مسرعة لتعود بعد لحظات مع حشد ثان من الأطفال، ثم حشد ثالث لأن أطفال الحي جميعاً- حتى الشحاذين الصغار في أسمالهم البالية- كانوا يسرعون إلى هذه المتعة الجديدة. وكانت هي في كل مرة تقلد حزن والدتها في اتقان تام.

وتعبت مع الوقت، وانصرف الأطفال إلى لعبة أخرى بعيداً عن البيت. وبقيت الجدة العجوز وحدها وقد نسيها الجميع تماماً.

وملأ الظلام الغرفة، وأخذ لهيب الشمعات المعتز يلقى ضوءاً متأرجحاً على الوجه الجامد المتغضن.

وحول الساعة الثامنة، صعد كارافان وأغلق النوافذ وغير الشموع. وكان يدخل الآن هادئاً وقد ألف منظر الجثة. كما لو كانت هناك منذ شهور، حتى لقد لاحظ أنه لم يبد أي تحلل عليها، وأسر بذلك إلى زوجته بينما كانا يجلسان إلى المائدة للعشاء. فأجابته: "حقاً إنها متينة وقد تحتفظ بحالتها عاماً بأكمله".

وتناولوا الحساء دون أن ينسبوا بكلمة. أما الطفلان فقد أنهكهما

التعب بعد أن قضيا يوما بطوله طليقين فأخذتهما سنة من النوم على مقعديهما. وخيم الصمت على الجميع.وفجأة خفت نور المصباح. فأدارت مدام كارافان مفتاحه في الحال، فأحدث صوتاً أجوف، كأنه حشرجة طويلة، ولم يلبث أن أنطفأ. لقد نسوا أن يشتروا زيتا. والذهاب إلى البدال سيؤخر العشاء. فبحثوا عن شمعات، ولكن لم يكن هناك سوى تلك التي كانت موقدة في الطابق العلوي بجانب المتوفاة.

وكانت مدام كارافان مطبوعة على اتخاذ قرارات سريعة، فأرسلت مارى لويز في عجلة لتحضر اثنتين منها، وأخذوا ينتظرون في الظلام.

وكانت خطوات الفتاة وهي تصعد الدرج تسمع بوضوح، وخيم صمت استمر بضع لحظات، ثم نزلت الفتاة ثانية مسرعة، وفتحت الباب مذعورة، وقد بدا عليها تأثر أشد من الأسى، وأعلنت الكارثة وهي تقول وقد خنقتها عبراتها:

- أبي.. إن جدتي تلبس ثيابها!

ونهض كارافان وقد انتفض انتفاضة شديدة، فانقلب مقعده على الحائط وتمتم: "تقولين؟ ماذا تقولين؟"

لكن مارى لويز قالت وقد خنقها الانفعال: "جدتي.. جد.. جدتي تلبس ثيابها.. وستنزل".

واندفع يصعد الدرج في جنون تتبعه زوجه ذاهلة، غير أنه وقف أمام

الباب في الطابق الثاني وهو يرتجف رعباً، ولا يجرؤ على الدخول. ما الذي سوف يراه؟ أما مدام كارافان– وهي الأكثر جرأة– فقد أدارت القفل ونفذت إلى الغرفة.

وكانت الغرفة تبدو أكثر اظلاما. وثمة شبح طويل هزيل يتحرك في وسطها. كانت العجوز واقفة. فقد استيقظت من سباتها العميق منذ قليل، وقبل أن تسترجع كامل وعيها، مالت إلى جانبها ونهضت معتمدة على مرفقها ونفخت ثلاثاً من الشمعات التي كانت موقدة قرب سرير الموت فأطفأتها. ثم استعادت قوتها، فنهضت تبحث عن حوائجها وأقلقها اختفاء الصوان أول الأمر، غير أنها لم تلبث أن وجدت حوائجها شيئاً فشيئاً في قاع الصندوق الخشبي، فلبست ثيابها بهدوء، وأفرغت بعد ذلك الطبق المملوء بالماء، وأعادت الغصن الأخضر إلى مكانه خلف المرآة، والمقاعد إلى أماكنها. وكانت متأهبة للنزول عندما ظهر أمامها ابنها وزوجته.

وأسرع كارافان وتناول يديها وقبلها، وقد اغرورقت عيناه بالدموع؛ بينما كانت زوجته وراءه تكرر في نفاق: "يا للسعادة! أوه، يا للسعادة!".

ولكن المرأة العجوز لم تتأثر ولم يبد عليها أنها فهمت شيئا، كانت جامدة كالتمثال، ثابتة النظرة.. وسألت فقط:

– هل العشاء معد؟

فتمتم وقد فقد رشده:

– أي نعم يا أمي! إننا في انتظارك.

وتناول ذراعها في عجلة لم تعهدها، بينما كانت الزوجة تمسك بالشمعة وتضيء لهما وهي تنزل السلم أمامهما، درجة درجة، كانت تسير القهقرى كما فعلت في الليلة السالفة أمام زوجها حين كان يحمل الرخامة.

وعندما بلغت الطابق الأول، كادت تصطدم بأناس جاءوا لتوهم..العائلة التي أتت من شارنتون.. مدام برو "الأخت" يتبعها زوجها.

وكانت مدام برو طويلة القامة، بدينة بارزة البطن لأنها مصابة بالاستقساء، فدفعت جذعها إلى الخلف، وكانت تفتح عينيها في فزع وقد تأهبت للفرار. وكان زوجها وهو اسكافي من الاشتراكيين، قصير القامة أشعر الجلد جميعه يشبه القرد تماما، فغمغم يقول دون أن يتأثر:

– يا الله.. ماذا؟ هل بعثت حية؟

ولم تكد الزوجة تتعرف عليهما حتى أومأت إليهما بإشارات يائسة، ثم رفعت صوتها:

–كيف!.. أهذا أنتما! يا لها من مفاجأة سارة!

ولكن مدام يرو لم تفهم شيئاً لفرط دهشتها، فأجابت في صوت خفيض:

– إن برقيتكم هي التي أتت بنا إلى هنا..كنا نظن أن الأمر قد انتهى.

وكان زوجها خلفها يقرصها لتسكتت.

واستطرد يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة من خلال لحيته الكثة:

–لطيف منكم أن تدعونا.. لقد أتينا في الحال.

وكان يشير بذلك إلى العداء القائم بين المنزلين منذ زمن طويل. فلما بلغت العجوز نهاية الدرج تقدم نحوها مسرعاً ليعانقها فحك شعر لحيته الكثة بخديها وصاح بأعلى صوته في أذنها– نظراً لصممها–:

– الحالة طيبة أيتها الأم؛ دائماً قوية! أليس كذلك؟

ولم تجرؤ مدام برو على معانقة أمها فقد تملكها ذهول شديد، إذ رأت أمامها تلك التي جاءت لتسير في جنازتها؛ وكانت بطنها المنتفخة تسد العتبة، وتمنع الآخرين من أن يتقدموا.

أما العجوز فكانت تنظر قلقة مرتابة إلى هذه الجماعة المحيطة بها، ولم تنبس بكلمة واحدة، وكانت فقط عيناها الرماديتان الصغيرتان القاسيتان، المنقبتان أبدا عما يبدو على وجوه الناس، كانتا تتذكران الواحد تلو الآخر، وفيهما معان ظاهرة تؤرق الجميع.

وقال كارافان مفسراً:

–كانت متعبة قليلاً، ولكنها الآن بصحة جيدة. جيداً. أليس كذلك يا أماه؟.

وحينئذ عاودت العجوز السير وأجابت في صوت متحشرج، وكأنه آت من بعيد:

–إنها حالة صرع، كنت أسمعكم طيلة الوقت!

وتلا ذلك سكون محرج. ودخلوا إلى حجرة المائدة ثم جلسوا أمام عشاء أعد في بضع دقائق.

وكان مسيو برو هو الوحيد الذي احتفظ بشأنه، وكان وجهه الذي يشبه وجه غوريلا شريرة– مغضن الأسارير. وكان يقذف بكلمات تحتمل وجهين وتضايق الجميع. لكن جرس الردهة كان يدق بين لحظة وأخرى، وتقبل روزالى حائرة تنادي كارافان، فيندفع إليها بعد أن يقذف منشفته، حتى أن صهره سأله عما إذا كان اليوم يوم الاستقبال في داره. فغمغم يقول:

– لا بعض مشاغل.. لا غير!

ثم جيء بربطة، ففتحها دون وعي، وظهرت خطابات دعوة للجنازة، محاطة بإطار أسود.. وعندئذ صعدت الحمرة إلى عينيه، وأغلق المظروف، ودسه في جيبه.

ولم تره أمه، فقد كانت لا تنفك تنظر إلى ساعتها برقاصها المذهب وهو يترجح فوق المدفأة. وازداد الحرج وسط الهدوء المطبق.

وعندئذ حولت العجوز وجهها المغضن نحو ابنتها، ومرت في عينيها ومضة خبيثة وقالت:

– يوم الاثنين.. ستحضرين إلي ابنتك الصغيرة.. أريد أن أراها!.

وصاحت مدام برو وقد أشرق وجهها:

– نعم يا أماه!.

وشحب وجه مدام كارافانن وكادت أن تهوى من الغم والهم.

وفي أثناء ذلك أخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، ودخلا دون مناسبة – في مناقشة سياسية. وكان برو يؤيد الآراء الثورية الشيوعية ويهتز وهو يصيح وقد لمعت عيناه وسط وجهه المغطى بالشعر:

– إن الملكية يا سيدي سرقة من العامل الكادح.. الأرض ملك للجميع والميراث فضيحة وعار". ولكنه كف عن الكلام فجأة خجلاً، كأنه تفوه بكلام سفيه، وقال في لهجة أكثر هدوءاً: "ولكن الوقت ليس مناسباً لمناقشة مثل هذه الأمور!

وانفتح الباب. وظهر "الدكتور" شينيهن وتملكه الاضطراب لحظة، ثم استعاد رباطة جأشه. واقترب من السيدة العجوز وقال لها:

–"آه! آه! أيتها الأم! الصحة جيدة اليوم! كنت أتوقع ذلك! أتصدقون! وكنت أقول بيني وبين نفسي وأنا أصعد الدرج: "أراهن على أنها ستكون واقفة على قدميها.

ثم ربت على ظهرها في خفة وقال:

– إنها متينة متانة جسر البون نوف. إنها ستدفننا جميعاً. سترون!

وجلس، وتناول القهوة التي قدمت إليه، ولم يلبث أن أشترك في حديث الرجلين مؤيدا برو فقد كان هو نفسه قد اتهم بالتواطؤ في الحركة الثورية بباريس، حركة "الكومون".

وأحست العجوز بأنها متعبة، وأرادت أن تنصرف. وأسرع كارافان نحوها. عندئذ ثبتت نظراتها عليه وقالت له:

–أما أنت فعليك أن ترجع خزانتي وساعتي إلى مكانهما في الحال!.

وتمتم في بله: –نعم يا أمي!

أما هي فأخذت ذراع ابنتها، وصعدتا معا. وبقى الزوجان مذهولين صامتين، وقد غرقا في مصيبة فظيعة، بينما كان برو يفرك يديه وهو يحتسي قهوته.

وفجأة اندفعت مدام كارافان صائحة وقد نال منها الغضب فأفقدها صوابها:

–إنك لص.. فاسق.. نذل.. إنني ابصق في وجهك.. إنني.. إنني... ولم تجد شيئاً تقوله أكثر من ذلك وخنقتها عبراتها. أما هو فكان يضحك وما زال مستمراً في احتساء قهوته.

ودخلت زوجته مدام برو في هذه اللحظة، فاندفعت مدام كارافان نحوها، وأخذت كلتاهما، الأولى بضخامتها وببطنها المرعبة، والثانية، بهزالها وعصبيتها وصوتها المتغير ويدها المرتعشة، أخذتا تتقاذفان اكداساً من السباب، بأعلى صوت لهما.

وتدخل شينيه وبرو، ثم قذف برو بزوجته إلى الخارج وهو يدفعها من كتفيها ويصبح بها:

–أخرجي أيتها الحمارة. إنك لكثيرة النهيق!

وسمع صوتهما في الطريق، يتشاجران وهما يبتعدان.واستأذن مسيو شينيه وخرج.

وبقي الزوجان كارافان وجهاً لوجه.

وعندئذ سقط الرجل متهالكاً على أحد المقاعد، وقد تصبب عرق بارد على سالفتيه.. وغمغم يقول:

– ماذا أقول لرئيسي؟!

كتلة الشحم

ظلت فلول الجيش المنهزم تجتاز المدينة أياماً عديدة. لم يعد الجيش جيشاً، بل صار جماعات مشتتة. واستطالت لحى الجنود واتسخت، وأصبحت ثيابهم العسكرية خرقاً بالية، وكانوا يتقدمون في خطى متراخية، لا ينضوون تحت علم ولا تضمهم سرايا. وقد بدوا جميعاً منهوكي القوى مقصومي الظهور، مسلوبي الفكر والإرادة. كانوا يمشون بحكم العادة فحسب، ويتهالكون من الإرهاق حالما يقفون. وكان يسترعى النظر بخاصة الرجال الذين شملتهم التعبئة الأخيرة. فهم قوم مسالمون من ذوي الأملاك الوادعين، ينوءون تحت ثقل البندقية، وكذلك شراذم من الحراس الذين يدركهم الذعر سريعاً، ويستخفهم الحماس، فتراهم متأهبين للهجوم أو للفرار. وترى بين كل أولئك جنوداً من ذوي السراويل القصيرة الحمراء، هم فلول فصيلة تحطمت في إحدى المعارك الحامية، وبعضا من رجال المدفعية العابسين وقد اصطفوا مع مشاة من مختلف الفرق، وتلمع أحياناً خوذة لامعة على رأس أحد رجال الخيالة وهو يجر قدميه جراً ليسير مع المشاة ذوي الخطوات القصار الخفاف.

وثمة فرق من المتطوعين يمرون بدورهم، وعليهم سيماء قطاع الطرق، وتحمل جماعاتهم ألقاب البطولة مثل "المنتقمون للهزيمة" و"مواطنو القبور" و"فرق الموت".

أما رؤساؤهم فتجار سابقون من تجار الأقمشة الصوفية، أو الحبوب أو الشحم أو الصابون، مقاتلون بالصدفة، اختيروا ضباطاً لما لديهم من مال، أو لطول شواربهم. وكانوا يحملون العديد من الأسلحة ويرتدون الكثير من الملابس والشارات العسكرية، ويتكلمون في صوت مجلجل، ويناقشون خطط المعارك، زاعمين أنهم يحملون وحدهم عبء فرنسا المحتضرة على أكتافهم، وتراهم يتهيبون أحيانا مرءوسيهم من الجنود الذين لا يتورعون عن شيء فهم قوم فائقو الشجاعة في كثير من الأحيان ولكنهم نهابون فجرة.

وشاع أن البروسيين يوشكون أن يدخلوا مدينة روان.

وكان رجال الحرس الوطني قد عادوا إلى منازلهم بعد أن ظلوا شهرين يستطلعون في حذر بالغ الغابات المجاورة، ويقتلون أحياناً حراسهم ويتأهبون للمعركة إذا ما تحرك أرنب صغير بين الحشائش. ثم اختفت فجأة أسلحتهم وملابسهم العسكرية وعدة القتال التي كانت تبعث الرعب فيما مضى، على مسافة ثلاثة فراسخ في كل اتجاه.

واجتاز آخر الجنود الفرنسيين نهر السين قاصدين بون اوديمير مارين بمدينتي سان سيفير وبور أشار. وسار القائد خلف الجميع يائساً عاجزاً عن أن يفعل شيئاً بهذه الفلول المشتتة، وقد أصبح هو نفسه مضيعاً بعد الهزيمة المنكرة التي نزلت بشعب ألف الانتصار دائماً، ولكنه سحق في هذه المرة على الرغم من شجاعته المأثورة، وراح يسير مترجلاً بين تابعين من ضباطه.

وخيم على المدينة هدوء عميق وانتظار وجل صامت. وذهبت التجارة وحب المال برجولة كثير من البرجوازين ذوي الكروش، فجعلوا ينتظرون في هلع الأعداء المنتصرين وقد خافوا أن يعدوا أسياخ الشواء وسكاكين المطبخ، أسلحة قتال.

وتوقفت الحياة، وأغلقت الحوانيت، وساد الصمت الطريق. وكنت تلمح أحياناً أحد السكان وقد أفزعه هذا الصمت المطبق، فراح يسير لطق الحيطان.وكان الناس من فرط القلق يتمنون وصول العدو.

وفي عصر اليوم الذي أعقب رحيل الجنود الفرنسيين، طلع بعض الفرسان– ولا يدري أحد من أين– طلعوا واجتازوا المدينة مسرعين. وبعد قليل نزلت كتلة سوداء منحدر سانت كاترين، بينما ظهر فوجان من الغزاة عن طريقي دارنتال وبواجيوم. والتقت طلائع الفرق الثلاث في ميدان البلدية في آن واحد.

وأخذ الجيش الألماني يتدفق من جميع الشوارع المجاورة وينشر كتائبه فيسمع رنين خطواتهم الثقيلة المنتظمة على أحجار الطريق، وأخذت الأوامر تلقى في لغة مجهولة، وتصعد إلى المنازل التي بدت ميتة مقفرة، بينما كانت هناك عيون خلف خشب النوافذ المغلقة، عيون ترقب هؤلاء المنتصرين، الذين جعلتهم شريعة الحرب أسياداً على المدينة وعلى أموال الناس وحياتهم. وقد أصاب السكان في غرفهم المظلمة، ذلك الجنون الذي يحدث في أعقاب الكوارث والاضطرابات الطبيعية الهائلة

التي تثور بالأرض فلا تجدي حيالها أية حكمة أو أية قوة. وهذا الاحساس نفسه يظهر كلما انقلبت أوضاع الأشياء، وتفوض الأمن، وأصبح كل ما كانت تحميه شرائع البشر أو قوانين الطبيعة، تحت رحمة وحشية غير واعية. فالزلزال الذي يسحق شعباً بأسره تحت اطلال المنازل، والنهر الذي تفيض مياهه فتجرف من غرق من الفلاحين مع جثث الحيوان والعوارض الخشبية المنتزعة من سفوف المنازل، والجيش الظافر الذي يقتل من يدافعون عن أنفسهم، ويقتاد الآخرين أسرى ويشيع النهب باسم السيف، ويحمد ربه على قصف المدافع، كل هذه كوراث متشابهة تزعزع الإيمان بالعدالة الأبدية، وبكل ما يقال عن عدل السماء، وعن حكمة الإنسان.

وكانت ثمة فصائل صغيرة تقف عند كل باب وتطرقه ثم تختفي داخل المنازل. فها هو ذا الاحتلال الذي يعقب الغزو. وعلى المنهزمين الآن، أن يتكلفوا الظرف مع المنتصرين.

وبعد فترة ما، انقشعت موجة الرعب الأولى، وساد الهدوء من جديد، فكنت ترى الضابط البروسي يتناول طعامه، على مائدة الأسرة، في بيوت كثيرة، فإذا كان مهذب الطبع، ألفيته يرثى تأدباً لحال فرنسا، ويعرب عن نفوره من المساهمة في هذه الحرب، وكان الناس يحمدون له هذا الشعور، أضف إلى ذلك أنهم ربما احتاجوا يوماً ما إلى حمايته. كما أن هذا الحمد قد يخفف عنهم عبء اطعام عدد أكبر من جنود العدو.

ثم، لماذا يجرحون شعور رجل يعتمدون عليه كل الاعتماد، إن تصرفا على هذا النحو، هو في عرفهم، أقرب إلى التهور منه إلى الشجاعة– ولم يعد التهور نقيصة البورجوازيين في مدينة روان كما كان الحال أيام الدفاع المجيدة التي أذاعت صيت مدينتهم. كانوا يقولون لأنفسهم، ذلك ما تقضى به اللياقة الفرنسية، وأنه يجوز أن يكون المرء مهذباً مع الجندي الأجنبي في داخل بيته، على ألا يظهر الألفة معه أمام الناس. فهم يتجاهلونه خارج البيت، أما في المنزل فيتحدثون معه عن طيب خاطر. وكان الألماني يطيل المكوث، يوماً بعد يوم، أمام مدفأة العائلة.

وأخذت المدينة تستعيد مظهرها العادي شيئاً فشيئاً، وإن كان الفرنسيون لا يخرجون كثيراً. وانتشر الجنود البروسيون في الطرقات. وباختصار كان ضباط الفرسان ذوو الحلل الزرقاء يجرون عدد القتال الضخمة على قارعة الطريق متشامخين، ولا يزيد احتقارهم للمواطنين العاديين عما أبداه لهم من احتقار، ضباط الفرق الخفيفة الذين كانوا في العام السابق يتناولون مشروباتهم في نفس المقاهي.

ومع ذلك فقد كان ثمة شيء يشيع في الهواء، شيء رقيق مجهول، جد غريب لا يطاق أشبه برائحة منتشرة، هي رائحة الغزو التي تفعم المنازل والميادين العامة، وتغير من طعم الأغذية، وتبعث في المرء الشعور بأنه في رحلة بعيدة بين قبائل بربرية خطيرة.

وكان المنتصرون يلحون في طلب المال، الكثير من المال.

والسكان يدفعون دائما فهم أغنياء على كل حال. ولكن كلما ازداد ثراء التاجر النورماندى كلما ازداد ألمه لأية تضحية، لأية ذرة من ثروته، يراها تنتقل إلى يد رجل آخر.

ومع ذلك فعلى بعد فرسخين أو ثلاثة من المدينة في اتجاه النهر الهابط جهة كراوسيه أو ديبيدال أو بيسار، كان الملاحون وصيادو السمك ينتشلون من قاع الماء جثة منتفخة. لرجل ألماني في بزته العسكرية، قتل بطعنة سكين أو بضربة نعل عتيق، أو هشمت رأسه بحجر، أو ألقي به في الماء بدفعة من أعلى الجسر. وكانت أوحال النهر تخفي هذه الانتقامات الغامضة الوحشية المشروعة، هذه البطولات المجهولة والهجمات الصامتة التي هي أشد خطراً من المواقع الحربية السافرة مع خلوها من رنين المجد، فالحفيظة على الأجنبي تثير بعض الشجعان ممن هم على استعداد لأن يلاقوا الموت في سبيل فكرتهم.

وعلى الرغم من أن الغزاة قد أخضعوا المدينة لنظامهم الصارم، فإنهم لم يرتكبوا أياً من الأعمال الفظيعة التي كانت تنسب إليهم طيلة زحفهم، ولهذا تشجع البعض، وعملت الحاجة إلى التجارة عملها في قلوب تجار البلدة من جديد. وكان للبعض منهم مصالح هامة في ميناء الهافر الذي يحتله الجيش الفرنسي، فحاولوا الوصول إلى هذه الميناء، بأن يذهبوا بالبر إلى ميناء دييب ومن هناك يركبون البحر إليها. فاستغلوا نفوذ الضباط الألمان الذين تعرفوا عليهم، وحصلوا من القائد العام على إذن بالرحيل.

وحجزت عربة كبيرة يجرها أربعة جياد لهذه الرحلة، وسجل عشرة أشخاص أسماءهم عند صاحبها، واستقر الرأى على الرحيل صباح أحد أيام الثلاثاء قبل طلوع النهار، تجنباً لاحتشاد الناس.

وكان الجليد قد جمد الأرض منذ وقت قصير، وحول الساعة الثالثة من يوم الاثنين، أقبلت سحب سوداء من الشمال تحمل الثلج الذي واصل سقوطه طيلة المساء والليل.

واجتمع المسافرون في الرابعة والنصف صباحاً في الفناء المكشوف لفندق نورماندى ليستقلوا العربة، وما برح النعاس يملأ عيونهم، وكانوا يرتعدون من البرد تحت أغظيتهم، ولا يكاد يرى بعضهم البعض من الظلام. وكان تكدس الثياب الشتوية الثقيلة عليهم يجعلهم جميعاً أشبه بقساوسة من ذوى الكروش في ملابسهم الطويلة. ثم تعارف رجلان منهم، واقترب منهما ثالث فتحادثوا، وقال أحدهم:

– إنني أصطحب زوجتي

– وأنا أيضاً.

وأضاف الأول:

– لن نرجع ثانية إلى روان، وإذا اقترب البزوسيون من الهافر، ذهبنا إلى انجلترا. وكان لكل منهم مشروعاً مماثلاً لتشابه أخلاقهم.

ولم تكن الخيل قد شدت بعد إلى العربة، وكان ثمة مصباح صغير

يحمله خادم الاصطبل يخرج بين الحين والحين من باب مظلم ليختفى في باب آخر في الحال. وكانت أرجل الخيل تطرق الأرض ويخفف من وقعها ما تحتها من روث وتبن. وكان من يأتي من أقصى المبنى صوت رجل يتحدث إلى الخيل ويسب ويعلن، وسمعت ضجة خفيفة منبعثة من الجلاجل فأدرك المسافرون أن عدة الخيول تهيأ، وبعد قليل صار هذا الرنين واضحاً مستمراً موقعاً حسب حركة الحيوان، يتوقف حينا ثم يستأنف في هزة مفاجئة يصاحبها وقع أقدام تطرق الأرض.

وقفل الباب فجأة وانقطع كل صوت، وصمت البرجوازيون الذين تجمدت أوصالهم من البرد. وظلوا جامدين بلا حراك.

وأخذ النديف الأبيض يلمع بلا انقطاع ،وهو ينسدل نحو الأرض كالستار فحما الأشكال ونشر على الأشياء زبدا من الثلج، ولم يعد أحد يسمع وسط هذا السكون المطبق على المدينة الهادئة المدفونة في الشتا، سوى هذا الحفيف المبهم الطافي الذي يحدثه الثلج الهابط، أنه شيء تحسه ولا تسمعه، تحس ذرات الثلج الخفيفة تملأ الفضاء وتغطي الدنيا.

وظهر الرجل ثانية ومعه مصباحه، وهو يجر في طرف حبله جواداً هزيلاً حزيناً لا يتقدم راضياً. وأوقفه بجانب ذراعي العربة، وأوثق السيور الجلدية، وبقى طويلاً ليثبت جهاز الفرس، فلم يكن يستطيع أن يستخدم سوى يد واحدة، لأنه أمسك المصباح باليد الأخرى. واتجه ليحضر الحصان الثاني، فانتبه إلى كل هؤلاء المسافرين الجامدين، الذين بيضهم الثلج، فقال لهم:

–لم لا تصعدون إلى العربة؛ ستصبحون في مأمن على الأقل!

لم يكونوا قد فكروا في ذلك من غير شك، فاندفعوا إليها، وأجلس الرجال الثلاثة زوجاتهم في مقدمة العربة وصعدوا بعدهن، ثم تبعهم الآخرون. وجلسوا في الأماكن الباقية دون أن يتبادلوا أي كلام.

وكانت أرضية الغرفة مغطاة بالقش فغاصت فيه الأقدام، وكانت السيدات الجالسات في مقدمة العربة قد أحضرن معهن مدافيء صغيرة من النحاس، يوقد فيها فحم كيميائي، فأشعلن هذه الآلات، وأمضين بعض الوقت يعددن ما لها من مزايا في صوت خفيض، ويتناقلن أشياء يعرفنها منذ وقت طويل.

وأخيراً جهزت العربة، وربطت فيها ستة خيول بدلا من أربعة، لثقل الحمل، وسأل صوت من الخارج:

– هل ركب جميع المسافرين؟..

وأجاب صوت من داخل العربة: "نعم". وسارت العربة.

وتقدمت العربة تقدماً بطيئاً في خطى وئيدة للغاية. وكانت العجلات تغوص في الثلج. وهيكل العربة يئن ويطقطق طقطقة مكتومة، وكانت الجياد تنزلق وتلهث ويتصاعد منها البخار، وسوط الحوذى يلهبها بلا انقطاع، ويدور في جميع الاتجاهات ويتعقد وينفرد كثعبان رفيع فيلسع فجأة ظهر الحصان المقوس فيتوتر عندئذ توتراً عنيفاً.

وأخذ الفجر يقبل شيئاً فشيئاً، وتوقفت عن السقوط هذه الأكداس الثلجية الخفيفة، التي يشبهها رجل أصيل من أهل روان بأنها أمطار من القطن. وثمة ضوء قذر يتسلل خلال سحب قاتمة ثقيلة، فيزيد الريف بياضاً على بياض، وكان يبدو، من حين غلى حين، صف من الأشجار الباسقات المغطاة بالجليد، أو كوخ عليه قبعة من الثلج.

وراح الركاب في داخل العربة يرمقون بعضهم البعض مستطلعين، تحت ضوء الفجر الكئيب. وفي الصدر كان السيد لوازو– تاجر النبيذ بالجملة في شارع جران بون– وحرمه يغالبهما النوم وهما جالسان في خير مكانين.

وكان لوازو هذا يشتغل فيما مضى موظفاً عند أحد التجار، وأفلس سيده في تجارته فاشترى لوازو متجره وأثري. وراح يبيع بأزهد الأسعار النبيذ من أردأ الأصناف لصغار تجار التجزئة في الريف، وقد اشتهر بين معارفه بأنه شيطان بارع، ونورماندى أصيل، كله مكر ومرح.

وذاعت شهرته كمحتال ماكر حتى أنه حدث ذات مساء في دار المديرية، أن السيد تورنل– وهو مؤلف حكايات وأغان، وصاحب نكتة وسخرية لاذعة، وذو شهرة محلية كبيرة– اقترح على بعض السيدات

اللاتي كان النوم يراود أجفانهن أن يلعبوا لعبة "لوازو فول[٦]"، طارت الكلمة نفسها في صالونات المديرية، ثم بلغت صالونات المدينة، فأضحكت أهل المقاطعة جميعاً شهراً بأكمله.

واشتهر لوازو علاوة على ذلك بدعاباته من كل لون، ونكاته المليحة والبذيئة، حتى أن أحداً لم يحدث عنه دون أن يقول "إن لوازو هذا رجل لا يبارى". وكان قصير القامة، منتفخ البطن كالكرة الكبيرة، يعلوه وجه محمر بين سالفتين وخطهما المشيب.

أما زوجته فهي مديدة القامة، ممتلئة الجسم، ذات ارادة نافذة، عالية الصوت، سريعة في قراراتها، وكانت في المتجر تمثل روح النظام والحساب الدقيق، بينما كان زوجها يشيع فيه النشاط والمرح.

وجلس بجانبها في الصدر السيد كاريه لامادون، وعليه المهابة والوقار، لأنه ينتمي إلى طبقة أرفع من طبقتهما. فهو رجل عظيم ذو قدر معروف في صناعة القطن، إذ يملك ثلاثة مصانع للغزل، ويحمل وسام جوقة الشرف من درجة ضابط، وهو أيضاً عضو في المجلس الأعلى. وقد ظل طيلة أيام عصر الامبراطورية رئيساً للمعارضة المتهاودة، لينال أجر مهادنته للمبدأ الذي كان يحاربه بأسلحة مهذبة على حد تعبيره.

---

[٦] **L'oiseau** معناها طائر وكلمة **Voler** معناها يطير. ولها معنى آخر: يسرق. فلعبة "لوازو فول **L'oiseau Vole** أي الطائر يطير. يمكن أن يكون لها معنى آخر هو: السيد لوازو يسرق.

وكانت مدام كاريه لامادون- وهي تصغر زوجها بكثير- مسلية للضباط من أبناء البيوتات الكريمة الذين يفدون لحراسة مدينة روان، والمرفهة عنهم. وقد جلست أمام زوجها في العربة، فبدت ضئيلة الجسم لطيفة الشكل فاتنة، وكانت متدثرة بفرائها، وراحت ترمق بعيون آسية هذه العربة التي تبعث على الرثاء.

أما جاراها- الكونت والكونتيسة هوبير دي بريفيل- فهما يحملان اسماً من أعرق الأسماء في نورمانديا. وكان الكونت شريفاً عجوزاً يستعين بزينته على إبراز أوجه الشبه بينه وبين الملك هنري الرابع. وتقول أسطورة تعدها العائلة من مفاخرها، أن الملك هنري الرابع كان على علاقة بسيدة من بلدة بريفيل، وقد حملت منه، ولهذا صار زوجها كونتا وحاكماً للمقاطعة.

وكان الكونت هوبير زميلا للسيد كاريه لامادون في المجلس العام، وهو يمثل الحزب الأورلياني في المقاطعة. وقد ظلت قصة زواجه من ابنة أحد مجهزي السفن ببلدة تانت، سراً غامضاً على الدوام. وكانت الكونتيسة عظيمة المظهر، تعرف كيف تستقبل الناس، بل ذاع عنها أن أحد أبناء الملك لويس فيليب قد أحبها، ولهذا كان الأشراف جميعاً يوقرونها، وظل صالونها أرفع الصالونات في البلدة والوحيد الذي لم تزايله الأناقة العريقة، وكان ارتياده أمراً عسير المنال.وثروة آل بريفيل- وكلها من العقارات- تدر دخلاً يبلغ على ما يقال، خمسمائة ألف فرنك.

وكان هؤلاء الأشخاص الستة وهم ركاب صدر العربة، يمثلون

الأعيان ذوى الدخل، تلك الطائفة القوية الموقرة في المجتمع، والتي يعد أفرادها أهل دين وتقوى.

وقد جمعت الصدفة الغريبة وحدها بين النساء على مقعد واحد، وجلست إلى جوار الكونتيسة راهبتان طيبتان كانتا لا تكفان عن التسبيح بمسبحتيهما الطويلتين وتدمدمان بصلوات ودعوات. وكانت إحداهما عجوزاً شوه الجدري وجهها في كل مكان حتى لتحسبها آثار رشاش سدد إليها من قريب. أما الثانية فكانت نحيلة هزيلة ذات وجه جميل معلول، وصدر مسلول نخره ذلك الإيمان الملتهب الذي يخلق الشهداء والملهمين.

وأمام الراهبتين رجل وامرأة، كانا محط أنظار الجميع.أما الرجل فذائع الصيت، أنه كورنوديه الديموقراطي، باعث الرعب في قلوب علية القوم. كان منذ عشرين عاماً لا يكف عن ارتياد المقاهي الديموقراطية حيث يفرط في الشراب فترى لحيته الحمراء غارقة في أكواب البيرة. وقد ورث عن أبيه صانع الحلوى ثروة كبيرة، بددها هو وأخوته مع فريق من الأصدقاء. وقد جعل ينتظر إعلان الجمهورية في صبر نافذ، ليحصل في النهاية على المركز الذي استحقه بفضل ما احتساه من مشروبات ثورية. وقد حدث في الرابع من سبتمبر أن اعتقد أنه عين محافظاً، ولعل ذلك كان بسبب دعابة ساحرة. فلما توجه لتسلم أعباء منصبه أبى عليه ذلك فراشو المكتب، الذين كانوا هم وحدهم أصحاب المكان، فاضطر إلى الانسحاب. ومع ذلك فقد كان رجلاً طيباً خدوماً لا يؤذي أحداً، وعمل

بهمة لا تعرف الكلل في تنظيم وسائل الدفاع، فحفر خنادق في السهول، وألقى على الأرض جميع الأشجار الصغيرة التي قطعها من الغابات المجاورة، وبث الشراك في كل الطرقات، فلما اقترب العدو لاذ بالمدينة وهو راض تمام الرضى عما قام به، وهو يتوجه الآن إلى الهافر لأنه يؤمن أنه سيكون أكثر نفعاً هناك حيث يجب أن تقام تحصينات جديدة.

أما المرأة فهي واحدة ممن يطلق عليهن "الغانيات" وكانت مشهورة ببدانتها المبكرة، مما جعل الناس يلقبونها باسم "كتلة الشحم" كانت قصيرة القامة مدورة في كل أنحاء جسمهان مفرطة في سمنتها، معقودة الأصابع عند السلاميات كأنها حبال من السجق الصغير، وهي ذات بشرة براقة مشدودة وصدر ضخم ناهد تحت الثوب، ومع ذلك فقد كانت فاتنة يهفو إليها الرجال لفرط نضرتها. وكان وجهها تفاحة حمراء، أو برعماً من ورد وشيك التفتح. وعيناها سوداوان رائعتان تظللهما أهداب طويلة وطفاء، وثغرها ضيق ساحر ندي يغري بالقبلات وأسنانها لامعة دقيقة، وهي مع ذلك– على ما يقال– ذات ميزات وخصائص لا يمكن تقديرها.

ولما عرفها الركاب، سرت همهمة بين النساء الشريفات، وسمعت همسات مثل "غانية" و"عار المجتمع" وطرقت أسماعها بعض الكلمات، فرفعت رأسها، وأجالت في جيرانها نظرة صارمة جريئة، فساد الصمت في الحال، وغض الجميع من أبصارهم باستثناء لوازو، الذي كان يرمقها وقد بدت على محياه علائم النشاط.

وبعد قليل عاودت السيدات الثلاث حديثهن وقد قرب وجود هذه المرأة بينهن، وجعل منهن صديقات حميمات. وبدا كأن من الواجب عليهن أن يكون رابطة قوية من الزوجات الكريمات ليواجهن هذه المرأة التي باعت نفسها بلا استحياء، ذلك لأن الحب الشرعي يستعلى دائماً على الحب المتحرر.

وقرب وجود كورنوديه بين الرجال الثلاثة، فثارت فيهم غزيزة البقاء، وراحوا يتحدثون عن المال بلهجة يشتم منها احتقار الفقراء. وأخذ الكونت هوبير يعدد ما ألحقه به البروسيون من أضرار ويتحدث عن الخسائر التي ستصيبه من سرقة المواشي ونهب المحاصيل، وكان يروي ذلك في ثقة السيد العظيم، صاحب الملايين الذي لا تكاد هذه الخسائر تضايقه غير عام واحد. أما السيد كاريه لامادون الذي تحمل خسائر فادحة في صناعة القطن، فقد عنى بإرسال ستمائة ألف فرنك إلى انجلترا، وهو مال كان يدخره للظروف. وأما لوازو فقد تدبر أمره، إذ باع للإدارة الفرنسية ما بقى في أقبيته من أنبذة، حتى أنه كان يدين الدولة بمبلغ طائل وكان يؤمل أن يقبضه في مدينة الهافر.

وكان الثلاثة الرجال يتبادلون نظرات سريعة ودية، وعلى الرغم من أسمائهم إلى طبقات مختلفة، فقد أحسوا بأن المال يؤاخي بينهم، وأنهم من الجمعية الماسونية الكبيرة التي تضم الملاك الذين يسمعون رنين الذهب كلما وضعوا أيديهم في جيوبهم.

وكانت العربة تسير سيراً جد بطيء، حتى أنهم لم يقطعوا حتى العاشرة صباحاً سوى اثنى عشر كيلو مترا. ونزل الرجال من العربة ثلاث مرات عند بعض الطرق المنحدرة وصعدوها راجلين، وبدأ القلق يساورهم فقد كان من المفروض أن يتناولوا غذاءهم في بلدة "توت"، وهم الآن يائسون من بلوغها قبل الليل. وأخذ كل منهم يمعن النظر في أنحاء الطريق لعله يكتشف مطعماً، وفجأة غاصت العربة في كومة من الثلج، فكان عليهم أن يقضوا ساعتين أخريين لتخليصها.

وتزايدت الشهية إلى الطعام، وأخذت تشوش العقول. ولم يظهر لهم أي مطعم صغير، ولم يعثروا على تاجر نبيذ واحد. ذلك لأن اقتراب البروسيين، ومرور الجيوش الفرنسية الجائعة قد أفزعا التجار جميعاً.

وسعى الرجال يبحثون عن الطعام في الضياع المنبثة على حافة الطريق، لكنهم لم يجدوا فيها شيئاً حتى الخبز، لأن الفلاح الحذر الحريص كان يخفي مؤنه مخافة أن ينهبها الجنود الجائعون، الذين كانوا يسطون على كل ما يعثرون عليه ويأخذونه عنوة.

وحول الساعة الواحدة بعد الظهر، أعلن لوازو أنه يحس حقاً بفراغ شديد في معدته. وكان الجميع يألمون مثله منذ وقت طويل. وكانت الحاجة المتزايدة إلى الطعام قد قضت على كل حديث.

ومن حين إلى حين، كنت ترى أحدهم يتثاءب، فلا يلبث أن يقلده آخر في الحال. وكان كل يقلده بدوره حسب طبعه وذوقه ومركزه

الاجتماعي، فيفتح فمه في ضجة أو في احتشام وهو يرفع بخفة يده ويضعها أمام فمه الفاغر، الذي يتصاعد منه البخار.

وانحنت "كتلة الشحم" عدة مرات، كما لو كانت تبحث عن شيء تحت مئزرها. وكانت تتردد لحظة وتنظر إلى جيرانها ثم تعتدل في هدوء. وشحبت الوجوه وتوترت. وأكد لوازو أنه مستعد أن يدفع ألف فرنك ثمناً لقطعة خنزير مملح. وبدرت من زوجته بادرة كأنها تريد أن تحتج على قوله، ثم هدأت، فهي تستشعر دائماً ألماً ممضاً، كلما سمعت حديثاً عن مال يبدد، بل لم تكن تقبل حتى المداعبات في مثل هذه الأمور. وقال الكونت: "إنني أحس في الواقع أني لست في حالة طيبة، كيف لم أفكر في إحضار طعام في سفري؟". وكان كل واحد منهم يأخذ على نفسه هذا التقصير.

وكان كورنوديه يحمل معه "زمزمية" مليئة بالروم. فقدم منها للجميع، ولكنهم رفضوا في برود. وقبل لوازو أن يشرب منها قطرتين. وعندما أعاد الزمزمية لصاحبها، شكره قائلاً:

– إنه شراب طيب يدفئ الجسم ويلهى عن الجوع.

وبعث فيه الكحول المرح، واقترح كما تقول أغنية الركب: "أن يأكلوا أسمن الركاب". وصدمت هذه الإشارة غير المباشرة إلى "كتلة الشحم"، السادة المهذبين من الركاب، فلم يجب عليه أحد بشيء. وابتسم كورنوديه وحده، وكفت الراهبتان الطيبتان عن التمتمة، وجلستا ساكنتين وقد أدخلتا أيديهما في أكمامهما الواسعة ، وخفضتا من

عيونهما، وهما تشكيان ولاشك إلى السماء آلامهما.

وأخيراً في الساعة الثالثة، وكانوا قد بلغوا سهلاً منبسطاً لا نهاية له، ولا تقع العين فيه على قرية ما، انحنت "كتلة الشحم" وجذبت من تحت مقعدها سلة عليها منشفة بيضاء.

وأخرجت منها صحناً صغيراً من الخزف، وقدحاً فضياً ثم قدرا به دجاجتان برمتهما مقطعتان أجزاء، ومحفوظتان تحت الجيلاتين. وظهرت في السلة أشياء طيبة أخرى، من فطائر محشوة باللحم، إلى فواكه وحلوى، وهي مؤونة معدة لرحلة ثلاثة أيام، حتى لا تحتاج إلى طعام الفنادق في الطريق. وبرزت رءوس أربع زجاجات بين لفافات الطعام، فتناولت جناح دجاجة وشرعت تأكله بطريقة رقيقة مع رغيف من الخبز الذي يطلق عليه في مقاطعة نورماندي اسم "خبز الوصاية".

وتعلقت بها الأنظار، وانتشرت رائحة الطعام فوسعت الخياشيم، وأسالت في الأفواه ريقاً غزيراً، وأحدث فعلها ألماً مقبضاً في أقصى الفكين تحت الأذنين. وصار احتقار السيدات لهذه الغانية احتقارا قاسياً، أصبح شيئاً أشبه برغبة شديدة في قتلها، أو إلقائها خارج العربة فوق الثلج، هي وقدحها المعدني وسلتها ومؤونتها.

أما لوازر فكان يلتهم قدر الدجاج بنظراته، وقال:

– خيرا، لقد كانت السيدة أكثر احتياطاً منا، هناك أناس يفكرون في كل شيء!

فرفعت رأسها نحوه وقالت:

– تفضل يا سيدي إن كنت تريد، أنه لأمر قاس ألا يأكل الإنسان شيئاً منذ الصباح.

فشكرها، وقال:

– بصراحة، أنا لا أستطيع أن أرفض، فلم أعد احتمل.. كما هو الحال في الحرب.. أليس كذلك يا سيدتي؟

ثم استطرد يقول وهو يدور بنظراته فيمن حوله:

– في لحظات كهذه يسعد المرء أن يصادف أناساً يغمرونه بالفضل.

وكانت معه جريدة فبسطها على ركبتيه لكي لا يلوث سرواله، وبمطواة كان يحتفظ بها دائماً انتزع ربع دجاجة كان يلمع تحت الجيلاتين. وراح يقضمه بأسنانه ويلوكه في رضى ظاهر، بحيث سرت في العربة تنهدات الضيق والضجر منه.

وتحدثت "كتلة الشحم" في صوت متواضع عذب وعرضت على الراهبتين الطيبتين أن تشاركاها أكلها. فوافقتا كلتاهما في الحال، بعد أن تمتمتا بعض عبارات الشكر، وأخذتا في الأكل بسرعة، دون أن يرفعا من بصريهما. ولم يرفض كورنوديه كذلك دعوة جارته. وبسطت الصحف على الحجور فتكون شيء يشبه المائدة.

وأخذت الأفواه تفتح وتغلق دون انقطاع، وتزدرد وتمضغ وتلتهم في وحشية تامة. وراح لوازو يعمل ناشطاً في ركنه، وفي صوت خفيض أخذ يحث زوجته على أن تقلده، وقاومت وقتاً طويلاً، ولكنها أذعنت بعد أن أحست بقرصات في معدتها. وعندئذ راح زوجها يفخم في عبارته ويسأل "رفيقتهم الساحرة" إن كانت تسمح بأن يقدم لقمة صغيرة لزوجته فقالت:

– أجل، بكل تأكيد يا سيدي!

قالت ذلك في ابتسامة لطيفة، ثم مدت يدها بالقدر. ووقع ارتباك شديد عندما نزعت فلينة القنينة الأولى من نبيذ بوردو. لم يكن هناك غير قدح واحد، فأداروه جميعاً، وكان كل واحد يمسحه بعد أن يحتسي منه. ولكن كورنوديه وحده شرب من الموضع الذي لم تزل تبلله شفتا جارته، ولعله فعل ذلك على سبيل المجاملة.

وعندئذ استشعر الألم، الكونت والكونتيسة قرينته وكذلك المسيو كاريه لامادون والسيدة حرمه، لوجودهم وسط هؤلاء الآكلين، وخنقتهم روائح الأطعمة، وأحسوا ذلك العذاب الممقوت، عذاب الحرمان، وعلى حين غرة، تنهدت زوجة صاحب المصانع، وزفرت زفرة أدارت الرؤوس. وامتقع لونها فصار كالثلج الأبيض المنتشر خارج العربة، وأغمضت عينيها، وسقطت رأسها. كانت قد فقدت رشدها، وذعر زوجها، وراح يستجدي المعونة من الجميع، وطار صوابهم. ولكن كبرى الراهبتين سندت رأس المريضة، ووضعت قدح "كتلة الشحم" بين شفتيها، وجعلتها

تبتلع بضع نقط من النبيذ. فانتعشت السيدة الجميلة في الحال، وفتحت عينيها وابتسمت، وأعلنت في صوت خفيض، أنها تستشعر القوة الآن. ومع ذلك فقد أرغمتها الراهبة على أن تشرب كوباً بأكمله من نبيذ بوردو حتى لا تتكرر المأساة، وقالت: "إنه الجوع، ليس إلا".

واحمرت "كتلة الشحم" خجلاً وارتبكت والتفتت إلى المسافرين الأربعة، الذين ظلوا بلا طعام:

– بحق الله.. هلا استطعت أن أقدم شيئاً للسادة والسيدات؟

وسكتت خشية أن تلحقها إهانة ما. وقال لوازو:

– حقاً! الناس أخوة في مثل هذه الظروف، ومن واجبهم أن يتعاونوا.. هيا سيداتي هلا قبلتن عرض السيدة دون كلفة! من يدري قد لا نجد بيتاً نقضى فيه الليل. وبهذه السرعة، لن نصل مدينة توت قبل ظهر الغد.

وشملهم التردد، ولم يجرؤ واحد منهم على أن يأخذ على عاتقه مسئولية قول: "نعم".

غير أن الكونت قطع في هذا الأمر. فتحول نحو الفتاة البدينة الخجول وقال لها في مظهر السيد المترفع:

– نحن نقبل يا سيدتي شاكرين.

وكانت الخطوة الأولى عسيرة شاقة، وما إن اجتازت العربة نهر

روبيكون، حتى أقبلوا بكليتهم على الطعام، وأفرغوا السلة وكان لا يزال بها بعض "الكبدة" وفطيرة بلحم الطيور، وقطعة لسان، وحبات من الكمثري، وقطعة جبن من "بون ليفيك" وبعض من البسكويت، وفنجان ملئ بالخيار والبصل المخلل، فكتلة الشحم كغيرها من النساء، تحب الفاكهة والخضر الفجة.

ولم يكن من المستطاع أن يأكلوا طعام هذه الفتاة دون أن يناقلوها الحديث. فتحدثوا متحفظين أول الأمر، ثم انطلقوا على سجيتهم عندما أظهرت حسن تصرفها، وبدت السيدتان دى بريفيل وكاريه لا مادون، رقيقتين مهذبتين، وهما سيدتان خبيرتان بقواعد السلوك. وأظهرت الكونتيسة بوجه خاص هذا التواضع المتلطف الذي تمتاز به السيدات العريقات في النيل اللائي لا يقلل من قدرهن هذا التنازل. أمام مدام لوازو الضخمة الجسم، وكانت تنطوي على نفس كنفس الشرطي، فقد ظلت جهمة، تأكل كثيراً وتتكلم قليلاً.

وتحدثوا بالطبع في شئون الحرب. وتناولوا ما اقترف البروسيون من فظائع وآثام. وما أبدى الفرنسيون من ضروب الشجاعة والأقدام. وراح هؤلاء الهاربون يشيدون بشجاعة الآخرين، وما لبثوا أن أخذوا يسردون القصص الشخصية. وتحدثت "كتلة الشحم"، وروت كيف غادرت مدينة روان. وكانت تتحدث في تأثر صادق، وفي حماس بالغ، حماس الفتيات اللاتي يستثيرهن الانفعال، حين يعبرن عما يجيش بأنفسهن من مشاعر

ثائرة. وقالت: "ظننت أول الأمر أنني أستطيع البقاء، فقد كان بيتي مليئاً بالمأكولات، وكنت أود البقاء لأطعم بعض الجند، فذلك خير من أن أغادر موطني إلى حيث لا أدري. ولكني عندما رأيت هؤلاء البروسين، كان الأمر أقوى مني، وبلغ بي الحنق كل مبلغ، وقضيت طيلة نهاري أبكي خجلاً وعاراً. آه! لو كنت رجلاً! إذن لاختلف الأمر، كنت أتطلع من النافذة فأرى هؤلاء الخنازير الذين يضعون على رءوسهم خوذات مدببة، وكانت خادمتي تمسك بي لتحول بيني وبين إلقاء الأثاث على ظهورهم، ثم جاء بعضهم ليقيم لدي، فقفزت ممسكة برقبة أولهم، وليس خنقهم عسيراً، وكدت أجهز عليه لو لم يجذبوني من شعري. ثم اضطررت إلى الاختباء بعد هذا، وأخيراً عندما سمحت الفرصة، غادرت المدينة.. "

فهنأوها كثيراً، وارتفع قدرها لدى رفقائها، الذين لم تتح لهم مثل شجاعتهان وكان كورنوديه يصغى إليها وعلى شفتيه ابتسامة التأييد والعطف، وكأنه رسول يفخر بحوارييه.. وكان يصغي إليها كما يصغي قسيس إلى رجل ورع يمجد الله، ذلك لأن الديموقراطيين ذوي اللحى الطويلة يحتكرون الوطنية كما يحتكر القسس الدين. ثم تكلم بدوره بلهجة الزعماء، مفخماً عبارته حسبما تعلم من المنشورات التي كانت تلصق على الجدران، ثم أنهى كلامه بعبارة بليغة حمل فيها على "القذر نابليون الثالث".

غير أن "كتلة الشحم" غضبت أشد الغضب، فهي من أتباع

الامبراطور، وعلت الحمرة وجهها، وصاحت وهي تتمتم في سخط:

– وددت لو رأيتكم مكانه.. إذن لرأينا النتيجة، نعم أنتم الذين خنتم هذا الرجل، لو صارت مقاليد الأمور في فرنسا إلى أمثالكم، لوجب أن يفر المرء منها".

ولم يبد التأثر على كورنوديه، بل ظل يحتفظ على شفتيه بابتسامة احتقار وترفع، ولكن حين تدخل الكونت ليهدئ ثورة الغانية، أحس القوم أن قوارص الكلم وشيكة أن تقال. وقال في عظة أن كل الآراء جديرة بالاحترام، مادامت تصدر عن اخلاص. أما الكونتيسة وزوجة صاحب المصانع– وكلتاهما تضمران ما يضمره وجوه القوم من حقد على الجمهوريين، حقد لا سبيل إلى تعليله، هذا بالإضافة إلى ذلك الحنان الغزيزي الذي تحمله النساء عامة للحكومات ذات البهرج والسلطان– فقد كانتا تحسان على الرغم منهما ميلاً إلى هذه البغى ذات الكرامة، والتي تماثل مشاعرها مشاعرهما تماثلاً قوياً.

وخلت السلة، فقد أتى الركاب العشرة على ما فيها دون عناء، وكلهم أسف لأنها لم تكن أكبر مما هي عليه. واستطرد الحديث فترة ما، وإن كان قد فتر نوعاً ما منذ نفد الطعام.

وجن الليل وأخذ الظلام يتكاثف، وبعث البرد القشعريرة في "كتلة الشحم" رغم سمنتها، فالإحساس بالبرد يشتد ساعة الهضم، وعندئذ عرضت عليها مدام دى بريفيل أن تستدفئ بمدفئتها التي استبدل فحمها

عدة مرات منذ الصباح، فوافقت في الحال، إذ كانت تحس بقدميها كأنهما قد تجمدتا. وقدمت كل من مدام كاريه لامادون ومدام لوازو مدفأتها للراهبتين.

وكان سائق العربة قد أشعل مصابيحها فألقت ضوءاً وهاجاً على الضباب الدقيق البادي فوق مؤخرة الخيل، التي كانت ترشح عرقاً، وأنارت أيضاً الثلج على جانبي الطريق، فبدا كأنه يجري في الضوء السائر.

ولم يعد أحد يرى شيئاً في العربة، ولكن حركة ما وقعت فجأة بين كتلة الشحم وكورنوديه، وكانت عينا لوازو تنقبان في الظلام، فخيل إليه أن الرجل الطويل اللحية قد أسرع بالابتعاد عنها، كأنه تلقى ضربة قوية نزلت عليه بلا جلبة.

وظهرت نقط مضيئة على الطريق.. إنها مدينة توت. كان الركاب قد قضوا إحدى عشرة ساعة سائرين، يضاف إليها ساعتان وقفت أثناءها الخيل أربع مرات لتستريح وتأكل، وإذن فقد قضوا في العربة أربع عشرة ساعة، ودخلوا البلدة ووقفوا أمام فندق "التجارة" .

وفتح باب العربة، وسمع صوت معروف بعث الرجفة في المسافرين. كان صوت احتكاك غمد السيف بالأرض.. وفي الحال علا صوت الرجل الألماني ببعض الكلام.

وعلى الرغم من أن العربة كانت واقفة، فلم ينزل أحد من ركابها، كأنهم توقعوا أن يذبحوا لدى خروجهم منها، وعندئذ ظهر السائق وهو يحمل في يده أحد مصابيحه فأضاء داخل العربة فجأة، وظهر صفان من

الوجوه المرتعدة، وقد فغرت أفواهها، وحملقت عيونها دهشة وفزعاً.

ووقف بجانب السائق وسط الضياء ضابط ألماني، كان شاباً مديد القامة نحيلاً مفرطاً في التحول، أشقر الشعر قد شد وسطه في البزة الرسمية وكأنه فتاة ترتدي مشدها، وكان يلبس خوذته المسطحة اللامعة وقد مالت على أحد الجانبين، فجعلته يبدو أشبه بساع من سعاة الفنادق الإنجليزية. وكان شاربه الضخم طويل الشعر مستقيمه يتدرج في الرفع على جانبي الفم، ينتهي بخيط أشقر يكاد لا يرى لفرط دقته، وقد بدا كأنه يشد طرفي فمه وخديه، فيحدث ثنية على الشفتين.

وتكلم بلغة أهل الألزاس ودعا الركاب إلى الخروج بلهجة جافة:

– تفضلوا بالنزول أيها السيدات والسادة.

وكانت الراهبتان أول من أذعن، ولبيتا الأمر في وداعة الورعات اللاتي ألفن الطاعة والخضوع، ثم ظهر الكونت والكونتيسة يتبعهما صاحب المصانع وزوجته ثم لوازو وهو يدفع أمامه زوجه البدينة وقال للضابط الألماني وهو يضع قدمه على الأرض: "عم صباحاً يا سيدي". قالها قلقاً وحذراً لا تأدباً، وكان الضابط وقحاً وقاحة أصحاب السلطان المطلق، فنظر إليه دون أن يجيبه بشيء.

وعلى الرغم من أن كتلة الشحم وكورنوديه كانا قرب باب العربة، فقد نزلا آخر الجميع. نزل كل منهما وقوراً مترفعاً أمام العدو. وحاولت المرأة البدينة أن تملك زمام نفسها، وأن تحتفظ بهدوئها. أما الرجل الديموقراطي

فقد أخذ يعبث بلحيته الطويلة بيد مرتعشة شيئاً ما. أراد كلاهما أن يحتفظ بكرامتهن فقد أدركا أن كل امرئ يمثل بلده إلى حد ما في مثل هذه المواقف، وقد أثارهم ما أظهر زملاؤهما من لين وخضوع. وكانت كتلة الشحم تحاول أن تبدو أكثر ترفعا من جاراتها السيدات الشريفات، أما هو فقد أحس إحساساً قوياً بأن عليه أن يضرب المثل، وأن يواصل مهمته في المقاومة التي بدأها ببث العقبات في طريق العدو.

ودخلوا المطبخ الفسيح في الخان. وبعد أن قدموا للألماني تصريح المرور الموقع عليه من القائد الأعلى، والذي ذكر فيه اسم كل مسافر وأوصافه ومهنته، أخذ الضابط يفحص كل هؤلاء القوم فحصاً طويلاً وهو يقارن بين الأشخاص والبيانات المدونة.

ثم قال في فظاظة: "هذا حسن!" واختفى.

وعندئذ تنفسوا الصعداء، وكانوا ما زالوا يحسون الجوع، فطلبوا العشاء، وكان اعداده يتطلب نصف ساعة. وكانت هناك خادمتان يبدو أنهما كانتا تجهزانه. وأثناء ذلك، ذهب المسافرون ليروا الغرف. وكانت كلها على طرقة واحدة طويلة تنتهي بباب زجاجي عليه رقم واضح.

وبينما هم يتأهبون للجلوس إلى المائدة، ظهر صاحب الخان بنفسه. كان تاجر خيل سابق، وهو رجل ضخم الجثة، مصاب بالربو، يخرج منه صفير دائم، وتخالج صوته بحة وأصوات بلغم في حنجرته. وقد خلف له أبوه اسم فولنفى، فسأل:

– مدموازيل اليزابيت روسيه!

والتفتت إليه كتلة الشحم وقد تملكتها رعدة شديدة وقالت:

–أنا

– إن الضابط البروسي يريد محادثتك في الحال يا آنستي!

– محادثتي أنا؟

– نعم، إذا كنت حقا الآنسة إليزابيث روسية.

واضطربت، وفكرت لحظة، ثم أعلنت في إصرار:

– هذا ممكن. ولكنني لن أذهب إليه!

وسرت حركة حولها. كان الجميع يتناقشون ويبحثون عن سبب هذا الأمر. واقترب منها الكونت وقال:

– إنك مخطئة يا سيدتي، فقد يجلب رفضك هذا مصاعب كبيرة. لا أقول لك فحسب، لكن لزملائك أيضًا. يجب ألا نقاوم قط من هم أقوى منا. وليس في هذا الدعوة أي خطأ بالتأكيد، ولعل الأمر يتعلق بإجراء نسى أن يتخذ.

وانضم الجميع إليه، وناشدوها، وضغطوا عليها، ونصحوها، وانتهوا بإقناعها، لأنهم جميعا يهابون التعقيدات التي قد تنتج عن فعل طائش. وأخيرًا قالت:

– سأفعل ذلك من أجلكم!

وأمسكت الكونتيسة بيدها وقالت:

– ونحن نشكر لك ذلك.

وخرجت. وانتظروها ليجلسوا إلى المائدة.

وأسف كل منهم لأنه لم يدع بدلا من هذه المرأة العنيفة السريعة الغضب، النزقة، وأخذ كل منهم يعد في رأسه بعض عبارات الملق، استعدادًا لدعوة قد توجه إليه.

ولكنها ظهرت ثانية بعد عشر دقائق، لاهثة الأنفاس، شديدة الاحمرار، تكاد تختنق من الغضب وكانت تتمتم:

– السافل.. السافل!

وأسرع الجميع إليها ليعرفوا منها جلية الأمر، ولكنها لم تقل شيئًا، ولما اشتد إلحاحهم قالت لهم في كبرياء:

–كلا: إن هذا الأمر لا يعنيكم.. لا أستطيع أن أتكلم.

وعندئذ جلسوا حول "سلطانية" الحساء الكبيرة التي تتصاعد منها رائحة الكرنب. وكان جو العشاء مرحًا رغم هذا الإنذار. وكان شراب السيدر طيبًا. فتناول منه لوازو وزوجه الراهبتان على سبيل الاقتصاد. وطلب الآخرون نبيذًا، أما كورنوديه فقد طلب جعة، وكانت له طريقته الخاصة في نزع سدادة القنينة، وفي إظهار رغوة الشراب وفي تأمله وهو

يميل الكأس ثم يرفعها ويضعها بين المصباح وبين عينيه ليتملى بلون السائل. وكانت لحيته الطويلة التي يشبه لونها لون مشروبه المفضل، تبدو كأنها تهتز طربًا، وعيناه لا تتحولان عن قدحه حتى ليبدو أحول، ويبدو عليه عندئذ أنه يقوم بالمهمة الوحيدة التي خلق من أجلها، حتى لتحسبنه يجمع في ذهنه ويوائم بين العاطفتين اللتين كانتا تملآن عليه حياته، وهما حب الجعة الشاحبة، وحب الثورة. ولم يكن يستطيع بكل تأكيد، أن يتذوق الواحدة، دون أن يفكر في الأخرى.

وفي طرف المائدة كان السيد فولنفي وحرمه يتناولان عشاءهما. وكان الرجل يرسل حشرجة أشبه بصوت قاطرة مكسورة، ويجتذب إلى صدره كثيرًا من الهواء حتى يستطيع أن يتكلم وهو يأكل. أما المرأة فلم تسكت قط وسردت كل انطباعاتها عند وصول البروسيين، وتكلمت عما فعلوه وما قالوه، وكانت تمقتهم أشد المقت، أولا لأنهم يكلفونها مالًا، وثانيًا لأن لها ولدين في الجيش. وكان أغلب حديثها موجها إلى الكونتيسة فقد شرفها أن تتحدث إلى سيدة من النبلاء.

ثم خفضت من صوتها لكي تتحدث عن أشياء دقيقة، وكان زوجها يقاطعها من وقت إلى آخر قائلًا:

–أفضل لك أن تسكتي يا مدام فولنفى!

ولكنها لم تكن تأبه له واستمرت تقول:

–نعم يا سيدتي، إن هؤلاء القوم لا يعرفون شيئًا آخر غير أن

يأكلوا البطاطس ولحم الخنزير ثم لحم الخنزير والبطاطس. ويجب ألا تعتقدي أنهم قوم نظاف– أوه! –كلا إنهم ولا مؤاخذة– ينشرون قذارتهم في كل مكان، ولو قدر لك ورأيتهم في التدريبات ساعات وأياما لعجبت أي عجب، إنهم جميعا في أحد الحقول، وتسمعين.. سر إلى الأمام.. وسر إلى الخلف، ودر إلى اليمين، ودر إلى اليسار. ولو أنهم زرعوا الأرض على الأقل، أو مهدوا الطرق في بلادهم.. ولكن لا يا سيدتي.. هؤلاء الجنود لا يفيد منهم أحد، هل يطعمهم الشعب هكذا مع أنهم لا يتعلمون شيئًا آخر غير تذبيح الناس؟ إنني عجوز ولست متعلمة، ولكني عندما أراهم يهلكون أنفسهم في طرق الأرض بأرجلهم من الصباح إلى المساء، أقول لنفسي: هل في هذا الوقت الذي نجد فيه أشخاصًا يقومون باكتشافات كثيرة، نجد آخرين يكلفون أنفسهم شططًا ليسيئوا إلى غيرهم. أليس من الفظاعة حقا أن يقتل الناس سواء أكانوا إنجليز أو بروسيين أو بولونيين أو فرنسيين؟ أليس من العجيب أن يدين القضاء شخصًا انتقم ممن أساء إليه، بينما تستباح إبادة أولادنا بالبنادق كأنهم طيور تصاد، وينعم بالنياشين على من يقتل أكبر عدد منهم؟ كلا، إنني لا أفهم ذلك أبدًا!

ورفع كورنوديه صوته قائلًا:

– الحرب همجية بربرية ما دام الإنسان يتهجم على جار مسالم، ولكنها واجب مقدس عندما يدافع المرء عن وطنه.

وطأطأت المرأة رأسها وقالت:

– نعم، عندما يدافع المرء عن نفسه، هذا شيء آخر. ألا يجدر أولا قتل جميع الملوك الذين يشعلون الحروب للذتهم؟

ولمعت عينا كورنوديه وقال:

– مرحى مرحى، أيتها المواطنة!

وأغرق السيد كاريه لامادون في تفكير عميق، فعلى الرغم من تعصبه للقواد العظام، فإن وجاهة الرأي الذي قال به هذه الفلاحة جعلته يفكر في الرخاء الذي يمكن أن تجلبه على البلد هذه الأيدي العاطلة، بل كل هذه القوى التي لا تنتج شيئًا، إذا استغلت في المشروعات الكبرى التي تقتضي قرونا لتنفيذها.

أما لوازو فقد ترك مكانه وراح يحدث صاحب الفندق في صوت خفيض، وأخذ الرجل البدين يضحك ويسعل، وكانت بطنه المنتفخة تهتز لنكات جاره، واتفق معه على شراء ستة براميل من نبيذ بوردو لفصل الربيع، بعد ما يرحل البروسيون.

وما إن انقضى العشاء حتى ذهبوا إلى فراشهم فقد كانوا جميعا مجهدين منهوكين.

أما لوازو الذي كان يراقب ما يجري فقد أرقد زوجته في فراشها، ثم أخذ يضع أذنه على ثقب الباب تارة، وعينه تارة أخرى محاولًا أن يكشف عما كان يسميه "أسرار الطرقة".

وبعد ما يقرب من ساعة سمع حفيفًا، فحملق بسرعة، ولمح كتلة الشحم– وكانت تبدو أكثر بدانة في قميص النوم المصنوع من الكشمير الأزرق، وقد زينت أطرافه بالدانتيلا– تمسك شمعة بيدها، وتتجه نحو الرقم الكبير في أقصى الطرقة تمامًا. غير أن بابًا جانبيًا انفتح قليلًا، فلما عادت بعد دقائق، رأى كورنوديه يتبعها، ولم يكن قد أكمل خلع ملابسه. ثم أخذ يتحدث إليها وتكلما في صوت خفيض، ثم وقفا، وبدا أن كتلة الشحم تمنعه من دخول حجرتها. ولم يكن لوازو مع الأسف يسمع كل الكلمات، فلما رفعا من صوتهما، تمكن من التقاط بعض الكلمات، كان كورنوديه يلح إلحاحًا شديدًا ويقول:

– اسمعي، إنك غبية، وماذا يضيرك من ذاك؟

فبدت محنقة ساخطة، وأجابت:

– كلا يا عزيزي هناك أوقات لا تعمل فيها هذه الأشياء، عار علينا هنا!

ولم يفهم تمامًا وجهة نظرها، وسألها: "لماذا؟"، وعندئذ احتدت عليه رافعة نبرة صوتها وقالت:

– لماذا؟ ألا تفهم لماذا؟ عندما يكون هناك بروسيون في الدار، بل في الحجرة المجاورة؟

فصمت. ولابد أن هذا الحياء الوطني الذي أبدته غانية ترفض

المتعة والعدو قريب، لابد أن هذا الإحساس قد أيقظ كرامته المنهارة، لأنه اقتصر على تقبيلها ثم عاد إلى حجرته في سكون.

وترك لوازو ثقب الباب وقد التهبت عواطفه، وقفز في الحجرة قفزة خفيفة وهو يهز قدميه، ولبس قلنسوته، ورفع الغطاء الذي كان يتمدد تحته جسم زوجته الصلب. فأيقظتها بقبلة وهو يهمس في أذنيها: "هل تحبينني يا عزيزتي؟"

ثم خيم السكون على الفندق كله. ولكن لم يلبث أن انبعث صوت من مكان ما لا يمكن تحديده، قد يكون من القبو، وقد يكون من أعلى الدار، إنه شخير قوي رتيب، صوت مكتوم مستمر تتخلله اهتزازات كتلك التي يحدثها ماء قدر يغلي على النار تحت ضغط شديد. لقد راح السيد فولنفي في النوم، وتلك أصوات نومه.

وكان القوم قد قرروا أن يستأنفوا السير في الثامنة من صباح اليوم التالي، فاجتمعوا كلهم في المطبخ في تلك الساعة، أما العربة، فكانت وسط الفناء، يغطي الثلج سقفها. كانت وحيدة بلا خيل أو سائق. وبحثوا عن السائق في الاصطبلات، وبين أكوام العلف والدريس، وفي مواقف العربات، ولكنهم باءوا بالفشل. وعندئذ قرر الرجال أن ينقبوا عنه في البلدة، وخرجوا فألفوا أنفسهم في ميدان فسيح تقع الكنيسة في أقصاه، وتقوم على جانبيه بيوت منخفضة ينزل فيها الجنود البروسيون. ورأوا أولًا رجلًا يقشر البطاطس، وغير بعيد منه رجلًا آخر يغسل دكان الحلاق، ثم

أبصروا ثالثًا نمت لحيته حتى بلغت عينيه، رأوه يقبل طفلًا ينتحب، ويهدهده على ركبتيه محاولًا أن يهدئ من خوفه. أما الفلاحات البدينات اللاتي انضم أزواجهم إلى الجيش المحارب، فقد كن يرشدن قاهرين الطيعين إلى ما يجب عليهم القيام به من عمل شق الخشب، وطبخ الحساء، وطحن البن، حتى أن واحدًا منهم كان يغسل ثياب مضيفته، وهي امرأة عجوز مقعدة.

وغلب الدهش الكونت، فسأل الشماس الذي كان خارجًا من بيت القسيس، فأجابه فأر الكنيسة العجوز: "أوه! ليس هؤلاء القوم أشرارًا، فهم ليسوا من البروسيين على ما يقال، إنهم من مكان أبعد من ذلك، ولا أعرف جيدًا من أي بلد، وكل منهم قد خلف زوجة وأطفالًا في بلده. وهم لا يجدون أية متعة في هذه الحرب. وأؤكد لك أن مواطنيهم يبكون عليهم في بلدهم كما نفعل نحن هنا، وسيحل الدمار بديارهم كما سيحل بديارنا. ونحن هنا لم نعان بعد شقاء كبيرًا الآن، لأنهم لا يؤذون أحدًا، ويعملون كأنهم في بيوتهم. ألا ترى يا سيدي أنه لابد أن يتعاون الصغار البائسون فيما بينهم؟ إن الكبار هم الذين يثيرون الحرب".

وانسحب كورنوديه فقد أحنقه هذا الوفاق بين الغالبين والمغلوبين، وآثر أن يلزم الفندق. وأطلق لوازو نكتة:

– إنهم يعوضون ما فقدنا من الرجال الغائبين.

وأطلق كاريه لامادون كلمة قاسية:

- إنهم يربئون الصدع.

ولكن لم يعثر أحد على السائق.. وأخيرًا وقعوا عليه في مقهى القرية مع الجندي التابع للضابط البروسي، فسأله الكونت:

- ألم نأمرك بتجهيز العربة قبل الثامنة صباحًا؟

- آه! بلى! ولكن أمرًا آخر صدر إلى.

- وأي أمر؟

- ألا أجهز العربة قط.

- ومن الذي أعطاك هذا الأمر؟

- بحق الله! إنه الضابط البروسي.

- ولماذا؟

- لست أدري. اذهب واسأله. لقد منعوني من تجهيز العربة، فلم أجهزها.. هذا هو كل ما في الأمر.

- وهل هو الذي أمرك بذلك بنفسه؟

- لا يا سيدي، صاحب الفندق هو الذي نقل إلي أمر القائد.

- ومتى حدث ذلك؟

- أمس مساء، وأنا ذاهب لأنام.

وعاد الرجال الثلاثة يساورهم قلق شديد.وطلبوا السيد فولنفى، ولكن الخادمة أجابتهم بأن سيدها لا يستيقظ أبدًا بسبب ربوه، قبل الساعة العاشرة، وقد حرم عليهم إيقاظه، قبل ذلك إلا عند حدوث حريق فقط.

وأرادوا أن يقابلوا الضابط، بيد أن ذلك كان أمرًا مستحيلًا على الرغم من نزوله في الفندق. وكان السيد فولنفى هو الوحيد الذي يصرح له بالتحدث إليه في المسائل المدنية. ولم يكن أمامهم إلا الانتظار. وصعدت النساء إلى حجراتهن ثانية، وشغلن أنفسهن بتوافه الأمور.

وجلس كورنوديه قرب مدفأة المطبخ الكبيرة، حيث كانت نار عظيمة. وأمر بأن يحضروا له إحدى نضد المقهى الصغيرة، وقنينة من الجعة، وأخرج غليونه الذي كان له بين الديمقراطيين تقدير يكاد يضارع تقديرهم لصاحبه، فكأن هذا الغليون قد خدم الوطن بخدمته لكورنوديه. كان غليونًا فاخرًا من طبخ البحر، أسود اللون لطول الاستعمال، أسود كأسنان صاحبه، لكنه كان معطرًا معوج العنق، لامعًا، أنيقًا، ومتممًا لمظهره. وظل الرجل جامدًا يثبت نظراته على لهب المدفأة حينا، وعلى الزبد الذي يتوج قدحه حينًا آخر. وكان كلما احتسى رشفة بدت عليه علامات الرضا، ومر بأنامله الطويلة الدقيقة خلال شعره الطويل اللامع، ولعق الرغوة العالقة بشاربيه.

وخرج لوازو متعللًا بالنزهة، وراح يبيع النبيذ لتجار التجزئة في البلدة. أما الكونت وصاحب المصنع فقد أخذا يتحدثان في السياسة

يتنبأن بما سوف يحدث لفرنسا في المستقبل. وكان أولهما يؤمن بآل أورليان، أما الثاني فيعلق آماله بمنقذ مجهول، بطل سوف يظهر عندما يحل اليأس، بطل شبيه بدي جوسلان، أو بجان دارك. ولربما كان نابليون آخر. آه! لو أن ولي العهد الإمبراطوري لم يكن صغير السن! وكان كورنوديه يصغي إليهما ويبتسم ابتسامة الرجل العارف بأحكام القدر، وكان غليونه ينشر أريجه في أرجاء المطبخ.

ودقت الساعة العاشرة فظهر السيد فولنفى، فأسرعوا يسألونه، ولكنه لم يقل شيئًا سوى أن كرر هذه العبارات مثنى وثلاثًا دون تغيير: "هكذا قال لي الضابط: "يا سيد فولنفى لا تدع عربة هؤلاء المسافرين ترحل في الغد، لا أريدهم أن يسافروا دون إذن مني. أتفهم! هذا يكفي!"

وعندئذ أرادوا أن يقابلوا الضابط، فبعث إليه الكونت ببطاقته، وأضاف عليها السيد كاريه لامادون اسمه مذيلا بكل ألقابه. وأبلغهم الضابط البروسي رده بأنه يسمح لهما بمقابلته عندما ينتهي من غذائه، أي في الساعة الواحدة تقريبًا.

وظهرت السيدات من جديد وتناولا جميعا قليلًا من الطعام، رغم ما كان يساورهم من قلق، وبدت كتلة الشحم مريضة مضطربة أشد اضطراب.وما كادوا يحتسون القهوة، حتى جاء الجندي التابع للضابط يستدعي السيدين.

وانضم لوازو إليهما، وحالوا أن يأخذوا معهم كورنوديه، حتى يكون

مسعاهم أبعد أثرًا، ولكنه رفض معلنًا في ترفع أنه لا يريد أن تكون له أية صلة بالألمان! وعاد إلى مدفأته وهو يطلب قنينة أخرى من الجعة.

وصعد الرجال الثلاثة، وأدخلوا في أجمل غرفة في الفندق، حيث استقبلهم الضابط وهو متمدد على مقعد وثير، وقد وضع قدميه على حافة المدفأة، وراح يدخن غليونه الطويل المصنوع من الصيني الفاخر، وكان مرتديًا ثوبًا منزليًا لامعًا، سطا عليه من غير شك في بيت هجره صاحبه السري ذو الذوق السقيم. ولم ينهض، ولم يسلم عليهم، بل لم ينظر إليهم. وكان نموذجًا تامًا لخشونة الرجل العسكري المنتصر.

وبعد لحظات قال:

– ماذا تريدون؟

وقال الكونت: –نريد الرحيل يا سيدي!

– كلا.

– هل أتجرأ وأسألك عن سبب هذا الرفض؟

– لأنني لا أريد.

– أود أن أنهي إليك يا سيدي بكل احترام، أن القائد الأعلى قد منحنا تصريحًا بالسفر إلى دييب، وأعتقد أننا لم نفعل ما يستوجب معاملة قاسية.

– لا أريد.. هذا هو كل شيء.. يمكنكم أن تنصرفوا.

وانسحب الرجال الثلاثة بعد أن انحنوا احترامًا.

ومضى العصر بغيضًا كئيبًا، فهم لم يفهموا سببًا لهذه النزوة التي أصابت الرجل الألماني، وأخذت الأفكار الغريبة تثير الاضطراب في الأذهان. وبقى الجميع في المطبخ، وقام بينهم نقاش لا ينتهي، وقد دارت في رؤوسهم خواطر مستحيلة. فلعلهم يريدون الاحتفاظ بهم كرهائن. ولكن لأي غرض؟ أو يأخذونهم أسرى؟ أو بالأحرى يطالبونهم بفدية كبيرة؟. وعند هذه الفكرة انتابهم ذعر جنوني. وكان أكثرهم غنى أشدهم فزعًا، إذ تصوروا أنفسهم مضطرين لافتداء حياتهم أن يفرغوا أكياسًا مليئة بالذهب بين يدي هذا العسكري الوقح. وأخذوا يقدحون زناد فكرهم ليخترعوا أكاذيب معقولة، وليخفوا أموالهم، وليدعوا أنهم فقراء، فقراء مدقعين. وخلع لوازو سلسلة ساعته وأخفاها في جيبه، وزاد الليل الهابط من مخاوفهم. وأضيء المصباح، وكانت لا تزال أمامهم ساعتان قبل العشاء، فاقترحت عليهم مدام لوازو أن يلعبوا لعبة "٣١" بالورق. فلعل فيها تسرية عن همهم، فقبلوا، حتى كورنوديه نفسه شاركهم اللعب بعد أن أطفأ غليونه تأدبًا.

وخلط الكونت الورق بنفسه ثم وزع على الجميع. وحصلت كتلة الشحم على ٣١ دفعة واحدة، ولم يلبث الانشغال باللعبة أن هدأ من الخوف الذي يساور الخواطر، ولكن كورنوديه لاحظ أن الزوجين لوازو قد اتفقا على الغش في اللعب.

وبينما هم يتأهبون للجلوس إلى مائدة العشاء، ظهر السيد فولنفى مرة ثانية وقال:

–طلب مني الضابط البروسي، أن أسأل مدموازيل إليزابيث روسيه، عما إذا كانت لا تزال تصر على رأيها؟.

وظلت كتلة الشحم واقفة، شديدة الشحوب، ثم احمر وجهها احمرارًا شديدًا، وخنقها الغضب بحيث لم تعد تستطيع الكلام، وأخيرًا انفجرت فيه قائلة:

–قل لهذا الخليع، لهذا الغبي القذر، لهذا البروسي النتن، إنني لن أرضخ أبدًا، أتفهم جيدًا، أبدًا، أبدًا، أبدًا!

وخرج صاحب الفندق البدين، وسرعان ما أحاط الجميع بكتلة الشحم وسألوها ملحين مستعطفين لتكشف الغموض الذي أحاط بزيارتها للبروسي، فتمنعت أول الأمر، ولكنها لم تلبث أن ثارت وصاحت:

–الذي يريده.. الذي يريده؟ يريد أن يضاجعني!

ولم يمتعض أحد لسماع الكلمة لشدة ما انتابهم من استنكار وغضب ضد هذا الجندي الدنيء، واتحد الجميع في المقاومة، كما لو كان قد طلب إلى كل واحد منهم أن يشارك بجزء في التضحية التي طلبت منها، وأعلن الكونت في اشمئزاز أن هؤلاء القوم يتصرفون تصرف البرابرة القدماء. وأبدت النسوة بخاصة نحو كتلة الشحم عطفًا وحنانًا،

أما الراهبتان اللتان لا تظهران إلا في أوقات الطعام، فقد خفضتا من رأسيهما ولم تنبسا بكلمة.

ومع ذلك فقد تعشوا عندما هدأت سورة الغضب الأولى، غير أنهم أقلوا من الحديث، وكانوا يفكرون.

وانسحبت السيدات مبكرات، ونظم الرجال– وهم يدخنون لفائفهم– لعبة ورق دعوا إليها السيد فولنفى، وقد انتهوا أن يستفسروا منه بلباقة عن الوسائل التي يمكن استخدامها ليثنوا الضابط عن عزمه. ولكنه لم يكن يفكر إلا في أرواقه، وكان لا يفتأ يكرر دون أن يسمع أو يجيب بشيء: "إلى اللعب أيها السادة! إلى اللعب!" وكان انتباهه محصورًا في اللعب حتى نسي أن يبصق، مما كان يجعل صدره يحدث صوتًا أشبه بحشرجة الأرغن في بعض الأحيان. وكانت رئتاه تصفران، وترسلان سلما من ألحان السعال، من ألحان القرار الغليظة إلى البحاح الذي ترسله الديوك الصغيرة عندما تحاول الغناء.

ورفض أن يذهب إلى غرفته، حتى عندما جاءت زوجته تدعوه إلى الصعود وقد غلبها النعاس. فذهبت بمفردها، لأنها كانت من أهل البكور، تستيقظ مع الشمس، بينما زوجها من أصحاب الليل، تراه دائمًا متأهبًا لقضاء الليل مع الأصدقاء. فصاح بها: "ضعي صفار البيض المضروب في اللبن أمام النار". وعاد إلى اللعب. ولما أدركوا تمام أنهم لن يفوزوا بطائل، أعلنوا أن وقت النوم قد حان، وذهب كل منهم إلى فراشه.

واستيقظوا كذلك في ساعة مبكرة في اليوم التالي، يخالجهم ألم مبهم، ورغبة أشد في الرحيل، وفزع من اليوم الذي لابد من قضائه، في هذا الفندق الصغير الفظيع.

وا أسفاه! كانت الجياد لا تزال في الاصطبل، والسائق مختفيًا، فخرجوا يدورون حول العربة، رغبة في عمل أي شيء.

وكان الإفطار كئيبًا، وقام ثمة شيء أشبه بالبرود نحو كتلة الشحم، لأن الليل– وهو خير ملهم– قد بدل من أفكارهم بعض التبديل. فهم يحسون الآن بشيء أشبه بالسخط على هذه الفتاة، لأنها لم تذهب سرًا إلى ذلك البروسي، حتى تعد مفاجأة طيبة لزملائها في الصباح، وهل كان ثمة ما هو أيسر من هذا؟ ومهما يكن من شيء، فمنذ الذي كان سيعرف هذا الأمر؟ كانت تستطيع، تغطية للموقف، أن تقول للضابط إنها تشفق على زملائها من الضيق الملم بهم. أضف إلى ذلك أن الأمر قليل الأهمية بالقياس إليها!

ولكن أحدًا منهم لم يصرح بهذه الأفكار.

وبعد الظهر، كان الضجر قد أخذ منهم كل مأخذ، فاقترح الكونت أن يقوموا بجولة في ضواحي القرية، وتدثر كل منهم بعناية. وذهبت الجماعة الصغيرة باستثناء كورنوديه الذي آثر الجلوس قرب النار، والراهبتين الطيبتين اللتين كانتا تنفقان نهارهما في الكنيسة أو في بيت القسيس.

وأما البرد فقد أخذ يشتد يومًا بعد يوم، وراح يلسع منهم الآذان والأنوف لسعًا أليمًا، وغدت الأقدام موجعة حتى كانت كل خطوة مصدر ألم فظيع، وعندما رأوا الحقول، بدا منظرها كئيبًا محزنًا، تحت هذا البياض اللانهائي، حتى أن الجميع عادوا أدراجهم في الحال وقد اغتمت منهم النفوس وانقبضت القلوب.

ومشت النسوة الأربع في المقدمة، وتبعهن الرجال الثلاثة متخلفين عنهن قليلًا.

وكان لوازو مدركًا للموقف على حقيقته، فسأل فجأة عما إذا كانت هذه "البغى" ستضطرهم إلى الانتظار طويلًا في مثل هذا المكان. أما الكونت وكان مهذبًا دائمًا فقد قال:

-إن أحدًا لا يستطيع أن يطالب امرأة بتضحية غالية مثل هذه التضحية، وإنما يجب أن تأتي من ذاتها.

ولاحظ السيد كاريه لامادون أنه لو قام الفرنسيون، كما كان يشاع، بهجوم مضاد عن طريق دييب، فلن يقع اللقاء إلا في بلدة "توت". وأقلقت هذه الفكرة الرجلين الآخرين، وقال لوازو:

-ما رأيكم لو هربنا راجلين؟

وهز الكونت كتفيه:

-أتفكر في الهرب وسط هذا الجليد المتساقط، ومع نسائنا؟

أضف إلى ذلك إنهم قد يطاردوننا، وسوف يلحقون بنا بعد عشر دقائق، ويعودون بنا أسرى تحت رحمة الجند.

وكان هذا حقا. وسكت الجميع.كانت النساء تتحدثن في الزينة، ولكن بدا كأن ثمة شيئًا من الضيق يباعد بينهن.

وفجأة ظهر الضابط في نهاية الطريق وارتسمت قامته المديدة على الثلج الذي يسد الأفق. وكان في بزته العسكرية. يمشي، وقد انفرجت ركبتاه، تلك المشية الخاصة بالعسكريين الذين يحاولون ألا يوسخوا أحذيتهم البراقة.وانحنى، عندما مر قرب السيدات، ونظر إلى الرجال باحتقار، ولكنهم تمسكوا بكرامتهم، فلم يرفعوا قبعاتهم، غير أنه بدرت حركة من لوازو ليكشف رأسه.

وصبغت الحمرة كتلة الشحم حتى أذنيها، وأحست الزوجات الثلاث بالخزي لأن الضابط قابلهن في صحبة هذه البغى، التي عاملها تلك المعاملة القاسية.

وعندئذ تكملن عنه.. عن هيئته، وعن محياه. أما مدام كاريه لامادون، وقد سبق لها أن عرفت ضباطًا كثيرين، وخبرت أمورهم، فقد قالت:

– إن هذا الضابط لا بأس به مطلقًا، بل إنها أبدت أسفها لأنه ليس فرنسيًا، فقد كان خليقا أن يصبح فارسًا بارعًا، يفتن النساء جميعا ولا ريب.

ولما عادوا إلى الفندق، لم يعرفوا ماذا يعملون، ودفعهم السأم إلى أن يتبادلوا عبارات جافة لأتفه الأسباب، ولم تدم وجبة العشاء الصامت إلا قليلًا، ثم صعد كل منهم إلى فراشه، مؤملًا أن ينام ليقتل الوقت.ونزلوا في اليوم التالي بوجوه متعبة وقلوب حانقة، ولم تعد النساء تتحدث إلى كتلة الشحم إلا نادرًا.

ودق أحد الأجراس معلنًا تعميد طفل صغير. وكان للغانية البدينة طفل أودعته لدى أسرة من الفلاحين في قرية ايفتو. ولم تكن تراه مرة واحدة في السنة، ولا يخطر لها على بال. ولكن تفكيرها في هذا الطفل الذي سيعمد عما قليل، بعث في قلبها حنانًا مباغتًا قويًا نحو طفلها، ورغبت ملحة في أن تحضر حفل التعميد.

وما إن خرجت حتى تبادل الجميع النظرات، ثم قربوا مقاعدهم، لأنهم كانوا يحسون أن عليهم أن يتخذوا قرارًا آخر الأمر. ونزل الإلهام على لوازو فرأى أن يقترح على الضابط الاحتفاظ بكتلة الشحم وحدها، وأن يسمح للآخرين بالرحيل.

وقام السيد فولنفى بالمهمة، لكنه نزل ثانية في الحال، إذ طرده الألماني– وهو العليم بالطبيعة الإنسانية– لقد شاء أن يحجز الجميع حتى تتحقق رغبته.

– وعندئذ انفجرت مدام لوازو، وظهر طبع الدهماء الكامن في قلبها، فقالت:

لن تبقى هنا إلى الأبد، على كل حال. مادامت مهنة هذه الحقيرة أن تأتي هذا الأمر مع كل الرجال، فليس من حقها أن ترفض واحدا وتقبل آخر. استمعوا إلي، لقد جمعت حولها كل من تصادفهم في روان، حتى الحوذية! نعم يا سيدتي سائق عربة المديرية! أنا أعرفه جيدًا، فهو يشتري نبيذه من محلنا. والآن، حين يتعلق الأمر بخلاصنا من ورطة، تدعى هذه الحقيرة ما ليس فيها!.. إني أرى أن مسلك هذا الضابط طيب جدًا. فربما كان محرومًا منذ وقت طويل، وها نحن هنا ثلاث نساء، وإنه ليؤثرنا عليها من غير شك. ولكنه لم يفعل هذا، إنه يكتفي بالتي تبيع نفسها للجميع. فهو يحترم المرأة المتزوجة. تدبروا الأمر، إنه هنا السيد المطاع. وليس عليه إلا أن يقول: "أريد". وكان يستطيع أن يغتصبنا بالقوة بوساطة جنوده.

وسرت رعدة خفيفة في السيدتين، وبرقت عين السيدة الجميلة مدام كاريه لامادون. وامتقع وجهها قليلًا، وكأنها تحس بأن الضابط قد اغتصبها فعلا.

واقترب الرجال الذين كانوا يناقشون الأمر بعيدًا، وكان لوازو ثائرًا ويريد أن يسلم هذه التعسة إلى العدو موثقة اليدين والقدمين، أما الكونت– وهو سليل أجيال ثلاثة من السفراء– فإنه يتحلى بخلق دبلوماسي، ويؤثر الكياسة واللباقة ولهذا قال:

– يجب إقناعها!

وعند ذاك دبروا مؤامرتهم.وتقاربت النساء وغضضن من أصواتهن.

واشترك الجميع في المحادثة، وراح كل منهم يبدي رأيه. وكان الكلام محتشما على كل حال. ووجدت السيدات صيغا وتعبيرات رقيقة جميلة عبرن بها عن أشد الأشياء فحشًا وبذاءة. ولو قد اقترب منهم شخص غريب لما فهم شيئا، لفرط مراعاتهم للتحرز والتحفظ في الكلام. ولكن ذلك القليل من الحشمة الذي تتدثر به كل امرأة من نساء الطبقة الراقية، ما هو في الواقع إلا طلاء سطحي. لقد أسعدتهن هذه المؤامرة الخليعة، وأمتعتهن أيما إمتاع، فهذا مجالهن، ورحن يتحدثن عن الحب بتلك اللذة التي يستشعرها طباخ نهم وهو يعد أكلة شهية لغيره.

وعادت البهجة إلى قلوبهم لفرط ما بدت لهم القصة ممتعة آخر الأمر، وأطلق لوازو بدوره بعض النكات الوقحة، فلم تصدم أحدًا. وكانت الفكرة التي عبرت عنها زوجته بصراحة قد سيطرت على أذهان الجميع: "مادامت هذه مهنتها، فلماذا ترفض رجلًا وتقبل آخر؟" وبدت السيدة اللطيفة مدام كاريه لامادون كأنها تفكر: "لو كانت مكانها لما رفضت هذا الضابط أكثر من سواه".

وطال إعدادهم للحصار، وكأنهم سيقتحمون قلعة حصينة. وعرف كل واحد منهم الدور الذي سيؤديه، والحجج التي سيستند إليها والمناورات التي سيقوم بها. وأعدوا خطة الهجوم، والخدع التي سيتوسلون بها، ومفاجآت الغزو لإرغام هذه القلعة الحية على التسليم للعدو، واستقباله في معقلها.

أما كورنوديه فقد بقي بمعزل عنهم، بعيدًا كل البعد عن هذه المؤامرة. كان ثمة انتباه شديد يبعث التوتر في الأذهان، حتى أن أحدًا لم يشعر بمقدم كتلة الشحم. ثم همس الكونت في صوت خفيض: "صه". وارتفعت جميع الأنظار. لقد حضرت. فسكتوا فجأة. وحال الارتباك دون أن يتحدثوا إليها أول الأمر. ولما كانت الكونتيسة أكثر خبرة من سواها بمداهنات المجتمعات فقد سألتها: "هل كان حفل التعميد ممتعا؟".

وكانت الفتاة البدينة لا تزال متأثرة بما رأت، فروت كل ما شاهدته وتحدثت عن وجوه الناس، وحركاتهم، بل وعن مظهر الكنيسة نفسها وأضافت: -"ما أجمل أن يصلي المرء أحيانًا!"

وعاملتها السيدات بلطف حتى موعد الغداء ليكتسبن ثقتها، ويضمن انصياعها لنصائحهن.

وما كادوا يجلسون إلى المائدة حتى شرعوا يقتربون من الموضوع. فجرى أولا حديث مبهم عن بذل الذات. وذكروا أمثلة قديمة: جوديت وهولوفرين، ثم ذكروا- بلا مناسبة- لوكريس مع سكستوس، وكليوباترا التي بذلت نفسها لقواد الأعداء، ثم فرضت عليهم ما تريد فصاروا عبيدًا لها. ثم سرد بعضهم قصة مختلفة نشأت في خيال أصحاب الملايين الجهلة، زعموا فيها أن المواطنات الرومانيات كن يذهبن إلى مدينة كابوا ليلهين، بين أذرعتهن، هانيبال وفرقة من المرتزقة. وذكرت أسماء جميع النساء اللائي أوقفن الغزاة، وجعلن من أبدانهن ميدانًا للمعارك، ووسيلة

للسيطرة، وسلاحًا ماضيًا، وقهرن بملاطفاتهن التي تسمو إلى البطولة، أشخاصًا من الأخساء الممقوتين، وضحين بعفتهن في سبيل الثأر والولاء.

بل إنهم تكلموا في مواراة عن تلك الإنجليزية سليلة الأسرة الكريمة، التي رضيت بأن تحقن بمرض معد وبيل كي تنقله إلى بونابرت، ولكنه نجا بأعجوبة، إذ انتابه مرض مفاجئ قبل الموعد المحتوم.

وقد قيل ذلك كله في أسلوب لائق معتدل، يتخلله بين الحين والحين حماس مصطنع خليق بأن يوحي بالمحاكاة.وكان من يسمع ما قيل ينتهي إلى الإيمان بأن المرأة قد خلقت في هذه الدنيا، لتضحي بشخصيتها وتستلم لنزوات الجند.

ويبدو أن الراهبتين لم تسمعا شيئًا، فقد استغرقتا في تفكير عميق. أما كتلة الشحم فلم تنبس بنت شفة.

وتركوا لها فترة العصر بطولها لتفكر في الأمر مليًا. غير أنهم بدلا من أن ينادوها بكلمة "مدام" كما اعتادوا، فقد جعلوا ينادونها ببساطة بكلمة "مدموازيل" دون أن يدري أحد لماذا، وكأنهم أرادوا أن ينزلوها درجة ما من الاحترام الذي ارتفعت إليه، وأن يجعلوها تحس بالصغار.

وظهر السيد فولنفى ساعة تقديم الحساء، وأخذ يكرر عبارة الأمس: "طلب مني الضابط البروسي أن أسأل مدموازيل إليزابيث روسيه أن كانت لم تغير رأيها بعد".

وأجابت كتلة الشحم في جفاء: "كلا يا سيدي".

وتراخت المؤامرة أثناء العشاء. ونطق لوازو بثلاث عبارات مشئومة. وراح كل منهم يجهد نفسه في اكتشاف أمثلة جديدة دون جدوى. وسألت الكونتيسة كبرى الراهبتين– وربما لم يكن سؤالها عن عمد، وإنما دفعتها رغبة مبهمة إلى تمجيد الدين– سألتها عن الأعمال المجيدة في حياة القديسين، إن كثيرين منهم أتوا أعمالًا تعد جرائم في نظرنا. ولكن الكنيسة تغفر خطاياهم إذا كانت تقترف لعزة الرب أو لمنفعة الغير. وكانت تلك حجة قوية، استغلتها الكونتيسة. وهكذا أمدت الراهبة المؤامرة بسند قوي، وربما كان ذلك عن اتفاق في وجهة النظر ورغبة من الراهبة في إرضاء الغير ومداهنتهم– وذلك لعمري أمر يحسنه كل من ارتدى ثياب الكهنوت– وربما كان عن ذكاء شديد أو عن غباء مطبق. وكان الجميع يظنون هذه الراهبة خجولة، فظهر أنها جريئة ثرثارة عنيفة. لم تكن تتردد وهي تتلمس طريقها في المشكلات المتعلقة بالضمير، وإنما كان مذهبها صلبًا لا ينثني، وإيمانها ثابتًا لا يتغير. وضميرها لا يعرف الوساوس. كانت ترى تضحية إبراهيم بابنه إسماعيل بسيطة كل البساطة، ذلك لأنها كانت خليقة أن تقتل أباها وأمها توا لو جاءها الوحي من عل. وفي رأيها أن الرب لا يبغض شيئا مادامت النية حميدة. واستغلت الكونتيسة السلطان الديني لتلك الحليفة التي هبطت عليها فجأة، فجعلتها تؤيد وتفسر القاعدة المعروفة: "الغاية تبرر الوسيلة"، وسألتها:

– إذن فأنت ترين أيتها الأخت أن الله يقبل كل الوسائل، ويعفو عن العمل مادام الدافع سليمًا؟

– ومن يستطيع أن يشك في ذلك يا سيدتي؟ إن عملًا منكرًا في ذاته يصبح في كثير من الأحيان جديرًا بالمثوبة إذا كانت النية طيبة.

وطفقتا على هذا النحو تكشفان عن مشيئة الله وتتنبآن بقراراته وتجعلانه يعني بأمور لا تعنيه في الواقع.

وكان كل هذا الكلام مخفيًا، لبقًا، مستورًا، بيد أن كل كلمة تقولها الراهبة كانت تحدث صدعا في مقاومة الغانية المستنفرة. ثم تحول الحديث قليلا فتكلمت الراهبة ذات المسابح المدلاة، عن الأديرة التابعة لمذهبها، وعن رئيستها وعن نفسها، وعن جارتها الصغيرة الأخت العزيزة سان نيسيفور. وقالت إنهما قد تلقيتا دعوة للتوجه إلى مدينة الهافر، لتعالجا في مستشفياتها مئات من الجند المصابين بالجدري. وصورت حال هؤلاء البائسين، ووصفت مرضهم بالتفصيل. وهكذا ترغمان على الوقوف في الطريق– بسبب نزوة هذا البروسي– في الوقت الذي يموت فيه عدد كبير من الفرنسيين كان يمكنهما إنقاذهم. وقالت إنها مختصة بعلاج العسكريين. وقد سبق أن ذهبت إلى القرم وإيطاليا والنمسا، وأخذت تسرد أخبار الحملات التي اشتركت فيها، فظهرت بأنها من هاتيك الراهبات اللائي خلقن على ما يبدو، ليتبعن المعسكرات، ويجمعن الجرحى وسط رحى المعارك، ويستطعن أن يفعلن

ما لا يفعله القواد، فيخضعن بكلمة واحدة الجنود الناشرين. وكان وجهها المشوه الممتلئ ثقوبًا، يبدو صورة بشعة لما تنزله الحرب من خراب.

ولم يقل أحد بعدها شيئًا، إذ كان لكلامها أبلغ الأثر.

وما إن انتهوا من تناول عشائهم حتى صعد القوم إلى غرفهم مسرعين ولم ينزلوا منها ثانية إلا في ساعة متأخرة من صبيحة اليوم التالي.

ومرت وجبة الغداء هادئة. فقد تركوا للحبة التي بذرت بالأمس وقتا لتنبت، وتؤتي ثمارها.واقترحت الكونتيسة القيام بنزهة في العصر. وعندئذ– وبناء على تدبير سابق– تأبط الكونت ذراع كتلة الشحم، ولزم معها مؤخرة الجماعة.

وحدثها بتلك اللهجة الأليفة الأبوية التي يشوبها شيء من الاستخفاف، والتي يصطنعها أهل الوقار مع الغانيات ودعاها: "يا ابنتي" وراح يتحدث إليها من قمة مركزه الاجتماعي الموقر، ونفذ في الحال لب الموضوع، قال: –إذن فأنت تؤثرين أن تتركينا هنا معرضين لجميع ألوان العنف والاضطهاد التي ستعقب ما قد يحيق بالفرق البروسية من هزيمة، تؤثرين ذلك على أن تقبلي شيئا من هذا التلطف الذي كثيرًا ما فعلته راضية في حياتك؟

ولم تجب كتلة الشحم بشيء.

وعالجها باللين والتعقل، ولجأ إلى عاطفتها، وعرف كيف يظل

"السيد الكونت"، مع التظرف أحيانًا إذا لزم الأمر، بل والتودد إليها وامتداحها. وأخذ يعظم من قدر الخدمة التي ستسديها إليهم، ويتحدث عن اعترافهم بجميلها، ثم رفع الكلفة معها فجأة، وقال: "وهل تدرين يا عزيزتي، ربما استطاع أن يفاخر بأنه قد تذوق فتاة فاتنة، لا يجد كثيرات مثلها في بلده!"

ولم تنبس كتلة الشحم بشيء، ولحقت بالجماعة ثانية.

وما إن عادت إلى الفندق حتى صعدت في الحال إلى غرفتها، ولم تظهر بعد ذلك أبدًا. وبلغ بهم القلق أي مبلغ: ما الذي ستعمله؟ وإذا قاومت، فيا لها من ورطة!

ودقت ساعة العشاء، وانتظروها بلا جدوى. وعندئذ دخل السيد فولنفى وأعلن أن الآنسة روسيه تحس بتعب بسيط، وأنه يمكنهم أن يبدؤوا العشاء. وتنبه الجميع، ودنا الكونت من صاحب الفندق، وسأله بصوت خفيض جدًا:

– هل انتهى الأمر؟

— نعم.

ومن باب اللياقة لم يقل شيئًا لزميلاته. لكنه أشار لهم إشارة خفيفة برأسه، وفي الحال انبعثت تنهدات الارتياح العميق من جميع الصدور، وعلت البهجة جميع الوجوه، وصاح لوازو:

– يا لله إنني على استعداد لتقديم الشامبانيا إن وجدت بهذا الفندق.

واغتمت مدام لوازو عندما عاد صاحب الفندق يحمل بين يديه أربع زجاجات. وانحلت عقدة الألسنة واشتد الصخب، وكانت فرحة جامحة ملأت الصدور. وبدا كأن الكونت قد راقه جمال مدام كاريه لامادون، وأطرى صاحب مصانع النسيج فتنة الكونتيسة، وكان الحديث كله حيوية ودعابة وظرف.

وفجأة بدا الهم على وجه لوازو، وصاح بهم وهو يرفع ذراعيه إلى أعلى قائلًا: "اسكتوا!". وسكت الجميع، دهشة وربما خوفًا. وأصاخ لوازو بسمعه وهو يشير بيديه الاثنتين قائلًا: "صه"، ورفع عينيه نحو السقف، وأصغى مرة أخرى، ثم استطرد يقول بصوته الطبيعي:

– اطمئنوا، كل شيء يسير على ما يرام!.

وترددوا في الفهم، ولكن لم تلبث أن مرت البسمة على شفاههم.

وبعد ربع ساعة، كرر نفس الدعابة، ثم أعادها كثيرًا أثناء السهرة. وكان يتظاهر بأنه ينادي شخصًا ما في الطابق العلوي، ويسدي له نصائح تحتمل معنيين، نصائح تسعفه بها عقلية التاجر الجوال، وكان يتظاهر بالحزن بين حين وحين، ويتنهد قائلًا: "يا للفتاة المسكينة!". أو كان يهمس من بين أسنانه وقد بدا عليه السخط: "أيها البروسي الصعلوك!". وفي بعض الأحيان كان يصيح بهم– وقد كفوا عن التفكير في هذا

الأمر- يصيح عدة مرات بصوت مرتعش: "كفى: كفى!" ويضيف وكأنه يحدث نفسه: "هل سنراها ثانية، أرجو ألا يقتلها.. هذا البروسي!"

وعلى الرغم من أن تلك المداعبات كانت مبتذلة سقيمة الذوق، إلا أنها سرت عنهم، ولم تجرح أحدًا، ذلك لأن الاستنكار خاضع للبيئة، شأنه شأن بقية الأشياء: وكان الجو الذي نشأ حولهم، رويدًا رويدًا، جوا مليئا بالأفكار الخليعة.

وأثناء تناول الحلوى، راحت السيدات أنفسهن تلمحن تلميحات فكاهية مستورة وأبرقت النظرات لفرط ما شربوا، وحتى الكونت، الذي كان يحتفظ دائما بمظهره الوقور المترفع- ولو كان ذلك في فترات الممازحة والانحراف- حتى الكونت نفسه وقع على تشبيه قوبل باستحسان كبير، فقد شبه ما كانوا فيه بانقضاء الشتاء في القطب، وبفرحة المنكوبين الذين بدؤوا يلمحون طريق النجاة إلى الجنوب.

وسمع هذا التشبيه لوازو فنهض رافعًا كأسًا من الشمبانيا في يده قائلًا: "إنني أشرب نخب خلاصنا". ووقف الجميع وهللوا له. وحتى الراهبتان الطيبتان قلدتا رجاء السيدات، ووافقتا على غمس شفتيهما في هذا النبيذ الفوار، الذي لم يسبق لهما أن تذوقتاه. وقالتا إنه يشبه عصير الليمون الغازي.. إلا أنه ألذ منه مذاقًا بكثير.

ولخص لوازو الموقف بقوله:

- إنه لأمر يؤسف له ألا يكون لدينا معزف (بيانو).. إذن لرقصنا.

ولم يقل كورنوديه كلمة واحدة، ولم يبد إشارة ما، كان يلوح عليه الاستغراق في أفكار خطيرة، وكان يثور أحيانًا فيشد لحيته الطويلة، وكأنه يريد أن يطيلها أكثر من ذلك. وكان لوازو يترنح فضربه على بطنه، وقال له متلعثمًا:

-إنك لا تمزح هذا المساء، ولا تقول شيئا أيها المواطن؟.

لكن كورنوديه رفع رأسه فجأة وقال وهو يشمل الجماعة كلها بنظرة مخيفة:

-أقول لقد أتيتم جميعا إثما كبيرًا.

ونهض، وبلغ الباب وكرر مرة أخرى كذلك:

-إثمًا كبيرًا.

واختفى.وسببت هذه العبارة برودًا أول الأمر، وحار لوازو وبقي لحظة مشدوها، ولكنه لم يلبث أن تماسك وطفق يردد هذه العبارة: "إنه فج للغاية يا عزيزي، فج للغاية[٧]!". ولما لم يفهموا شيئا من كلامه، قص عليهم "أسرار الطرقة" وعندئذ استعادوا مرحهم الشديد وأغرقت السيدات في اللهو كمجنونات. وبكى الكونت والسيد كاريه لامادون من شدة الضحك، ولم يصدقا ما سمعاه.

---

[٧] إشارة إلى خرافة لافونتين الشهيرة "الثعلب والعنب". قال الثعلب إذ عجز عن الوصول إلى عناقيد العنب: "إنه فج للغاية!" (المترجم)

– كيف؟ أواثق أنت؟ أكان يريد..؟

– أقول لكم إنني رأيته.

– ورفضت..

– رفضت لأن البروسي كان في الغرفة المجاورة.

– غير ممكن؟

– أقسم لكم على ذلك.

وكاد الكونت يختنق من الضحك، وراح صاحب المصانع يشد على بطنه بكلتا يديه، واستطرد لوازو قائلا:

– ولهذا تدركون سر حزنه الليلة.

وعاود الثلاثة الضحك، منهوكين مبهوري الأنفاس.ثم افترقوا. لكن مدام لوازو– وهي امرأة سوء، لفتت نظر زوجها وهما يتأهبان للنوم، إلى أن هذه "الشريرة" مدام كاريه لامادون، كانت تضحك ضحكة صفراء طيلة السهرة، وقالت: إأن النساء يتعلقن بالبزة العسكرية سواء أكانت فرنسية أم بروسية، فالأمر عندهن سيان. وذاك لعمري شيء مؤسف!".

وطول الليل، كانت ثمة همهمات خفيفة تمر خلال الطرقة المظلمة، لا يكاد يحس بها، أشبه بأنفاس أو بوقع أقدام عارية على الأرض، أو طقطقة خفيفة لا تسمع. ولابد أنهم ناموا في ساعة متأخرة جدًا، فقد بقيت خيوط النور تنساب طويلًا من تحت الباب. وللشمبانيا

نتائج من هذا النوع، فهي تسبب –على ما يقال– اضطرابًا في النوم.

وفي صباح الغد، كانت الشمس المشرقة تضفي على الثلج رونقًا وبهاء. وها هي ذي العربة قد أعدت أخيرًا. إنها تنتظر أمام الباب، بينما كان هناك عديد من الحمام الأبيض الوردي العيون، المنتفخ في ريشه الكثيف، يتجول بوقار بين أرجل الخيول الستة، باحثًا عن قوته وسط الروث الذي كان يتصاعد منه البخار.

وتدثر سائق العربة في فروه خروف، وجلس يدخن غليونًا على مقعد القيادة وكان كل المسافرين مبتهجين، وقد طلبوا أن تحزم لهم بسرعة بعض المؤن، للجزء الباقي من الرحلة.

واكتمل العدد إلا كتلة الشحم. ثم ظهرت آخر الأمر..كانت تبدو مضطربة خجلة، وتقدمت على استحياء نحو زملائها الذين تحولوا عنها جميعا في حركة واحدة، وكأنهم لم يروها. وأمسك الكونت بذراع زوجته في وقار، ونأى بها عن هذه الصحبة الدنسة.

ووقفت الغانية البدينة مشدوهة، وعندئذ استجمعت شجاعتها، وبادرت زوج صاحب المصانع بقولها:

– عمي صباحًا يا سيدتي.

همست بها في لهجة متواضعة. ولم ترد عليها السيدة الأخرى إلا بهزة من رأسها، قرنتها بنظرة ملؤها الفضيلة المجروحة. وتظاهر الجميع بالانشغال عنها، ووقفوا بعيدًا، كأنها تحمل الوباء في ثيابها، ثم اندفعوا

نحو العربة، وسارت هي بمفردها، وصعدت في آخرهم، واتخذت، في صمت، مكانها الذي شغلته في الجزء الأول من الطريق.وتجاهلوها فكأنهم لا يعرفونها، ولكن مدام لوازو نظرت إليها من بعيد نظرة سخط، وقالت لزوجها في صوت خفيض:

– من حسن حظي أنني لا أجلس بجانبها!

وتحركت العربة الثقيلة، واستؤنف السير.ولم يتكلموا في بادئ الأمر، ولم تجرؤ كتلة الشحم على أن ترفع عينيها، وكانت تحس بأنها أهينت أمام رفقائها جميعا، وأنها تدنست بإذعانها لرغبة هذا البروسي الذي دفعها بين ذراعيه نفاق رفقائها ونذالتهم.

وقطعت الكونتيسة هذا الصمت المؤلم وتوجهت بالحديث إلى مدام كاريه لامادون وقالت: –أظنك تعرفين مدام ديتريل؟

– نعم أنها صديقتي.

– يا لها من امرأة فاتنة.

– رائعة! إنها حقا من الصفوة المختارة، وهي مثقفة ثقافة كبيرة، كما أنها فنانة بمعنى الكلمة. أنها تغني غناء ساحرًا. وترسم رسمًا يبلغ الكمال.

وكان صاحب مصانع النسيج يتحدث إلى الكونت، وبين قرقعة زجاج النوافذ كانت تسمع أحيانًا كلمات مثل: "كوبون– استحقاق– نسبة مئوية– بأجل".

وكان لوزاو قد سرق من الفندق ورق اللعب القديم، المغطى بطبقة من الدهن لفرط استعماله خمس سنوات على موائد الفندق غير النظيفة، فأخرجه وأخذ يلاعب زوجه.

وتناولت كل من الراهبتين الطيبتين مسبحتها الطويلة المتدلية من حزامها، ورسمتا علامة الصليب، وراحت فجأة شفاههما تتحرك بسرعة أخذت تزداد رويدًا رويدًا وكأنهما تتسابقان في الصلاة. وكانت كل منهما تقبل أيقونة بين الحين والحين، ثم ترسم علامة الصليب مرة أخرى، ولا تلبث أن تستأنف زمزمتها السريعة المتصلة.

واستغرق كورنوديه في التفكير، وظل ساكنًا لا يريم حراكًا.وبعد أن قطعوا ثلاث ساعات في الرحلة، جمع لوزاو أوراقه وقال: "أحس بالجوع!".

فأخذت زوجته صرة ملفوفة بدوبارة، وأخرجت منها قطعة لحم باردة، وقطعتها بمهارة شرائح رقيقة، وأخذا يأكلان.

وقالت الكونتيسة: "لو فعلنا مثلهما!" ووافق الجميع، وحلت ربطة المؤن المعدة للأسرتين، وهي تتكون من إناء عريض رسم على غطائه الخزفي صورة أرنب، مشيرًا بذلك إلى أن ثمة أرنبًا محشوًا كان يرقد تحته، وكذلك بعض من لحم خنزير محفوظ لذيذ، وكانت خيوط الدهن اللامعة البيضاء تبدو خلال اللحم الأسمر الممزوج بلحوم أخرى مفرومة فرمًا دقيقًا، وكانت هناك أيضًا قطعة من الجبن الفاخر، لفت في ورقة جريدة، فطبعت عليها هاتان الكلمتان: "أخبار الحوادث!".

وأخرجت الراهبتان الطيبتان قطعة مستديرة من السجق تتصاعد منها رائحة الثوم. ودس كورنوديه يديه في جيوب معطفه الواسع، وأخرج من أحدها أربع بيضات مسلوقة، ومن جيب آخر قطعة خبز. وقشر البيض وقذف بالقشر تحت قدميه على القش، وأخذ يقضم البيض، وكان يسقط على لحيته العريضة فتاتًا من صفار البيض الفاقع، بدت فوقها كالنجوم الثاقبة.

أما كتلة الشحم فقد نسيت أن تحضر معها شيئًا، لأنها استيقظت عجلة وجلة. وأخذت تنظر محنقة وهي تكاد تختنق من الغيظ إلى كل هؤلاء القوم الذين يأكلون في برود. وتملكها أول الأمر غضب صاخب وفتحت فاها، لكي تصفع هؤلاء القوم بحقيقتهم، وتكيل لهم السباب الذي كان يتصاعد إلى شفتيها، ولكنها لم تكن تستطيع الكلام لفرط غيظها.

ولم يكن أحد ينظر إليها أو يفكر فيها. وكانت تحس بنفسها غارقة في الاحتقار، الذي يبديه نحوها هؤلاء الكلاب من الناس "المحترمين"، أولئك الذين ضحوا بها أول الأمر، ثم ما لبثوا أن لفظوها كشيء قذر لا نفع فيه. وعندئذ فكرت في سلتها الكبيرة الزاخرة بالطيبات، التي التهمها هؤلاء القوم بشراهة، فكرت في دجاجتيها اللامعتين في الجيلاتين، وفي فطائرها المحشوة باللحم، وفي حبات الكمثرى، وفي زجاجاتها الأربع من نبيذ بوردو، ثم خف غيظها فجأة كوتر أفرط في شدة فانقطع، وأحست بنفسها على وشك البكاء، فبذلت مجهودًا شاقًا، وتماسكت

وابتلعت شهقاتها كالأطفال. لكن الدموع كانت تتصاعد إلى عينيها، وتلمع على حافتها، ولم تلبث أن طفرت وسالت على وجنتيها دمعتان سقطتا من عينيها، وتلتها دموع أخرى أسرع من الأولى، كانت تسيل كنقط من الماء تنضح من صخرة، ثم تسقط في انتظام فوق صدرها الناهد. وظلت مشدودة القامة، ثابتة النظرة، جامدة الوجه شاحبته، وهي ترمل ألا يراها أحد.

لكن الكونتيسة لاحظتها، وأخطرت زوجها بإشارة، فرفع كتفيه استخفافًا وكأنه يقول:

– ماذا تريدين، ليس الخطأ خطأي!

وضحكت مدام لوزاو ضحكة انتصار صامتة، وقالت:

– إنها تبكي عارها!.

وعادت الراهبتان الطيبتان إلى الصلاة بعد أن لفتا ما بقي من السجق في قطة من الورق.

وعندئذ كان كورنوديه يهضم البيض الذي أكله، فمد ساقيه الطويلتين على المقعد المواجه، واستلقى وقد رفع ذراعيه، وابتسم كرجل مرت بخاطره نكتة فكهة، وأخذ يصفر نشيد المارسييز.

واغبرت جميع الوجوه، فالأنشودة الشعبية لم تكن تعجب جيرانه بالتأكيد. وتوترت أعصابهم، وظهر عليهم الغيظ الشديد، وبدا كأنهم على

وشك أن ينبحوا كالكلاب حين تسمع موسيقى الشوارع. ولاحظ هو ذلك فلم يتوقف عن صفيره، بل أنه كان أحيانًا يدندن ببعض عبارات النشيد:

"يا حب الوطن المقدس.

"سدد أيدينا للانتقام.

"أيتها الحرية.. أيتها الحرية العزيزة.

"قاتلي مع المدافعين عنك.

وسارت العربة بسرعة أكبر، لأن الثلج كان أشد صلابة، وبقى كورنوديه حتى دييب، طيلة ساعات السفر الكئيبة، وخلال رجات الطريق، وفي الليل الهابط، ثم في الظلام الدامس، بقى مستمرًا في عناده، مرغمًا العقول المتعبة المحنقة على تتبع النشيد من أوله إلى آخره، وعلى تذكر الكلمات المطابقة للأوزان.

أما كتلة الشحم فلم تكف عن البكاء. وكانت تنطلق منها أحيانًا شهقة عجزت عن احتباسها فتسمع –في الظلام– بين مقطعين من مقاطع النشيد.

الفهرس